

# كتاب الصلوات

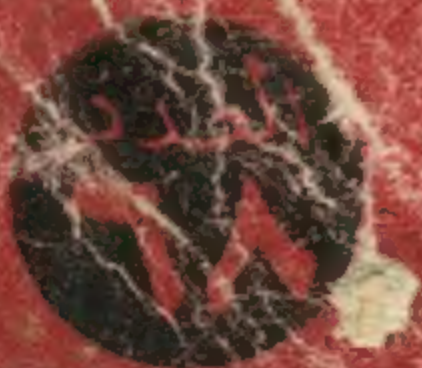
شاعرة الطليعة

عائشة

تأليف

فقيدة الشرق

الآنسة محي



تصوير عن دار الإكتفاء  
بيروت - سورية





# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »  
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٦٨ - ربيع الثاني ١٣٧٦ - نوفمبر ١٩٥٦

No. 68 — November 1956

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب  
( المبتديان سابقا ) القاهرة

المكاتب

كتاب الهلال - بوسطة مصر العمومية - مصر  
التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ( ١٢ عددا ) - مصر والسودان  
٨٥ قرشا صافيا - سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو  
لبنانيا - الحجاز والعراق والأردن وليبيا ١١٠ قروش  
صافي - في الأمريكتين ٥ دولارات - في سائر  
أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صافيا أو ٣٠/٩ شلن

# كتاب المصداق



سلسلة شهرة لنشر الثقافة بين الجميع

**إهداء ٢٠٠٩**

المرحوم الدكتور / محمد فتحي أحمد محمد سيد

**جمهورية مصر العربية**

شاعرة الطبيعة  
عاشة تيمور

---

تأليف  
فقيدة الشرق  
الآنسة فتي

مكتبة  
دار الهلال





عائشة تيمور

## مقدمة

فى سنة ١٩٥١ ، اشترت سلسلة كتاب الهلال من ورثة  
فقيده الأدب الأنسة مى هذا الكتاب «عائشة تيمور» لتنشر  
بين كتبها . وكانت مى قد نشرت بعض فصول هذا الكتاب  
فى مجلة المقتطف سنة ١٩٢٣ كمحاضرات ألقته عن هذه  
الشاعرة فى دار « جمعية فتاة مصر الفتاة »

وقد اجتمعنا بورثة الأنسة مى فى دار الهلال وسلمونا  
الفصول المنشورة ، والفصول الأخرى بخط هذه الأديبة  
الفقيده . واعتزمنا نشر هذا الكتاب فى ذلك الحين ، إلا أن  
الفرصة لم تكن وقتئذ متاحة ، فشفغلنا بتقديم غيره من  
كتب السلسلة ، وأجلنا نشره الى فرصة أخرى

ولما نشرت لجنة نشر المؤلفات التيمورية ديوان « حلية  
الطراز » للسيدة عائشة تيمور ، قدمت له بفصول لطائفة  
من الأديبات والأدباء ، وشاءت إلا أن تنشر تلك المحاضرات  
التي نشرتها المقتطف دون الرجوع الى ورثتها . وهى جزء  
من هذا الكتاب — وان كنا علمنا أنه لم يطبع من « حلية  
الطراز » إلا عدد محدود لا يسمح باطلاع الكثيرين من القراء  
على هذا الأثر النفيس ، كما أن مانشر فى مقدمة الديوان ، لم  
ينشر ككتاب ، بل كمحاضرات



ولهذا فاننا نقدم لقرائنا كتاب الأنسة مى عن هذه الشاعرة  
الكبيرة كما وضعته هى كتابا كاملا ومؤلفا تاما ، قد ثقل عن  
خط هذه الادبية النابغة بعد ما أدخلت عليه بعض التعديل  
والتهذيب

ولابد هنا من كلمة عن تاريخ كل من الشاعرة والكاتبة ،  
ليقف القارئ قبل قراءة هذا الكتاب على ماينير له  
الطريق فى حياة كل منهما بالاجمال :

فأما الشاعرة ، فهى السيدة عائشة عصمت تيمور بنت  
اسماعيل باشا تيمور بن محمد كاشف تيمور . وقد ولدت  
سنة ١٢٥٦ الهجرية الموافقة ١٨٤٠ الميلادية بمدينة القاهرة  
من والده جركسية الاصل . وقد بدأت حياتها بتعلم فن  
التطريز ، فاستحضرت لها والدتها ادوات لتعليم هذا الفن ،  
ولكنها كانت تميل بفطرتها الى تعلم القراءة والكتابة . وقد  
آتس منها والدها هذا الميل ، فأحضر لها اثنين من الاساتذة  
احدهما ابراهيم أفندى مؤنس ، وكان يعلمها الخط والقرآن  
والفقه ، والآخر يدعى خليل أفندى رجائى ، وكان يعلمها  
الصرف والنحو واللغة الفارسية . وبعد ما أتمت حفظ  
القرآن الكريم تآقت نفسها الى مطالعة الكتب الادبية وفى  
مقدمتها الدواوين الشعرية حتى تربت عندها ملكة الادب .  
ثم رأى والدها ان يستحضر لها بعض فضليات السيدات  
اللاتى اخذن قسطا وافرا من اللغة والادب العربى ، ولكنها  
تزوجت من السيد محمد توفيق زاده نجل محمود بك  
الاسلامبولى بن السيد عبد الله الاسلامبولى كاتب ديوان  
همايونى بالاستانة ، وكان ذلك فى سنة ١٨٥٤ الميلادية  
وعمرها اربعة عشر عاما ، فتفرغت للشئون الزوجية ، ثم

تاقت نفسها الى الادب والعلم ، فاستحضرت لنفسها سيدتين  
لهما المام بالنحو والصرف والعروض احدهما السيدة ستيتة  
الطبلاوية ، والثانية تدعى السيدة فاطمة الازهرية ، فأخذت  
عنهما النحو والعروض حتى برعت وأتقنت بحوره ، وأحسننت  
قول الشعر

وقد تعلمت اللغة التركية ، التي أخذتها عن  
والدتها ووالدها ، ووضعت في الشعر ثلاثة دواوين باللفات  
العربية والتركية والفارسية ، وألفت في النثر كتابين هما :  
« نتائج الاحوال » و « مرآة التأمل في الامور » وستقرأ عن  
هذين الكتابين للآنسة مي في هذا الكتاب . وقد توفيت السيدة  
عائشة تيمور في ٢ مايو سنة ١٩٠٢ في سن الثانية والستين



أما الكاتبة الآنسة مي واسمها « ماري زيادة » فقد  
ولدت بالناصرية بفلسطين في ١١ فبراير سنة ١٨٨٦ الميلادية  
ووالدتها السيدة « نزهة معمر » فلسطينية ، من مدينة  
الجليل . أما والدها « الياس زيادة » فهو لبناني نرح الى  
الناصرية يعلم في إحدى مدارسها . وقد تعرف بالسيدة نزهة  
وهي سيدة فاضلة كان لها حظ من التعليم والثقافة ، تحفظ  
ديوان بن الفارض ، ومئات الابيات الشعرية عن ظهر قلب  
ولما شبت مي وبلغت السادسة دخلت مدرسة الراهبات  
اليوسفيات في هذه البلدة ، وقد ولد لها أخ لم يعمر طويلا ،  
فعاشت وحيدة أبويها تستمتع بأجمل العطف والحنان

ولما بلغت مي الثالثة عشرة من عمرها أرسلها والدها الى  
« مدرسة الزيارة » في عينطورة بلبنان . فبقيت فيها الى

سنة ١٩٠٤ حين أتمت فيها دروسها ، ثم انتقلت الى مدرسة الراهبات اللعازاريات في بيروت

وفي سنة ١٩٠٨ رغب والدها في الهجرة الى مصر ، فسافرت هذه الاسرة الصغيرة ، وأقامت في القاهرة . وكان لابد لى أن تساعد والدها في العيش ، فاختيرت معلمة لاولاد الثرى الكبير ادريس بك راغب . وقد توطدت الصداقة والمودة بين هذا الثرى والاسرة المهاجرة ، فاهدى الى والدها جريدة المحروسة ومطبعتها ، وهى الجريدة التى انشأها سليم النقاش ثم باعها لعزیز الزند ، فانفتح أمام الأسرة باب رزق جديد

وفي سنة ١٩١١ نشرت مى كتابها الاول « أزاهير حلم » وهو مجموعة شعر لها باللغة الفرنسية . وقد اطلع خليل مطران على هذه الاشعار فكتب يقول :

« قرأت أزاهير حلم ، فتمثل لدى قفص من الذهب يتحرك في داخله ، وينتقل بين أسلاكه اللامعة عصفور صغير ملون الريش ، مرح كل المرح كأنه يضرب بأجنحته الصغيرة جوانب هذا القفص الذهبى ليفلت من قيود أسلاكه ، وينطلق منه الى الجو الفسيح ، لانه لا يطيق الاحتباس ولا يقدر ان يكون سجيناً في مكان ضائق بأمانيه في الحياة » !

وقد نشرت « أزاهير حلم » بامضاء مستعار هو « ايزيس كوبيا » . وايزيس اسم زوجة اوزيريس ويرمز الى مارى . أما كوبيا ، فهو ترجمة زيادة باللاتينية . ولكنها بعد نشر هذا الكتاب لم ترتح الى هذا الاسم المستعار ، وكانت قد حضرت محاضرة للسيدة ليبة هاشم في الجامعة المصرية في ربيع سنة ١٩١١ عن حرية المرأة ، فلاحظت ان بعض



الحاضرات يتلهين بالهمس والمزاح عن الاستماع الى المحاضرة، ففضبت لذلك . ولما عادت الى بيتها كتبت أول مقال لها بالعربية في جريدة المحروسة في انتقاد هذه الحال . ولم تشأ أن توقعه بالاسم « ايزيس كوبيا » واختارت ان توقعه باسم عربى ، فنحنت من اسمها « مارى » اسما مستعارا هو « مى » يشتمل على الحرف الاول والاخير من اسمها فاشتهرت بهذا الاسم . . !

وكانت أول سلسلة أدبية خرجت بها على الجمهور في صحيفة يومية هو « يوميات فتاة » . وكان لهذه اليوميات اثرها فى الانتباه الى اليقظة النسوية ، وضاعفت من نشاط المرأة العربية . فلما زارت ضهور الشسوبر بلبنان فى صيف ١٩١١ احتفى بها الادباء والاعيان ، واقيم لها « كوخ » على « جبل مرحاتا » تذكارا لهذه الزيارة . وقد بنى هذا الكوخ من خشب الفصون وسقف بالاعشاب اليابسة وسمى الكوخ الاخضر لانها جللت جدرانها بالنسيج الاخضر من الداخل ، وقد حنت عليه من الخارج الاغصان الخضراء ، وأحدقت به الخضرة من كل جانب

وقد افتتح بحفلة ترأسها الامير قبلان ابى اللمع رئيس الادارة ، وألقت هى أول خطبة لها ، قالت فيها :

« لو علمت ان الاحتفاء بى وحدى مجردة ، لحبس الخجل كلمة الشكر على شفتى ، ولاختلجت يدى وهى تحمل الكأس ، ولكنى أعلم أن الغاية من هذا التكريم أبعد من أن تحصر فى فتاة ، وأعظم من أن توجه الى فرد . وانما الغاية منه تشجيع الفتاة الشرقية عموما التى تقولون اها فى شخصى

ان فى الشرق روحا جديدة ، تطلب نهضتها وان عيونكم  
ترقبها ، وقلوبكم ترعاها منتظرة ماينم عن رغبتها فى النهوض  
أو عن مجرد ميلها اليها ، لتمدوها بالقوة والتنشيط الممكن»



وفى سنة ١٩١٣ زارت لبنان ، فألفت خطبتها الثانية فى  
« عيد العذراء » . . ولكن الحفلة التى ضاعفت من شهرتها  
فى مصر ولبنان هى حفلة تكريم خليل مطران تحت رئاسة  
ولى عهد مصر فى ذلك الحين وبحضوره ، وكانت حفلة رهيبة  
لمى فى سنها الناشئة . ولكنها تغلبت على رهبتها وألقت فيها  
كلمة جبران خليل جبران التى كانت بعنوان « الشاعر  
البعليكى » ثم ألقت بعدها كلمتها فى تكريم هذا الشاعر  
الكبير ، فنالت اكبر الاعجاب . ومن ذلك الحين انطلقت  
شهرتها الواسعة كخطيبة وادبية وكاتبة ، فكتبت المقالات  
اللامعة فى الادب والاجتماع والنسائيات ، وألفت عدة كتب  
بلغت اثنى عشر كتابا . وكان لصالونها الادبى مقام مكين بين  
كبار الادباء وشيوخ الشعر والنثر ، فقد كان يجتمع فيه كل  
ثلاثاء فى منزلها بشارع مظلوم باشا فوق جريدة الاهرام طائفة  
من الاعلام كالاستاذ أحمد لطفى السيد ، والاستاذ خليل  
مطران ، واسماعيل صبرى باشا ، والدكتور شبلى شميل  
والاستاذ أنطون الجميل ، والاستاذ داود بركات ، والاستاذ  
ولى الدين يكن ، والاستاذ مصطفى صادق الرافعى ، والاستاذ  
عباس محمود العقاد ، والدكتور طه حسين ، ويعقوب  
صروف ، ومصطفى عبد الرازق وأمثالهم . وكانت مى زهرة  
هذا الصالون التى تفيض بالذكاء والرقّة . وقد اشتهر عنه

هذا البيتان اللذان قالهما المرحوم اسماعيل صبرى حين  
بعث بهما اليها وهو فى السفر :

روحى على دور بعض الحى حائمة  
كظامىء الطير تواقا الى المساء

ان لم أمتع بمى ناظرى غدا  
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وقد مرضت مى فى أواخر حياتها ، ثم لم تلبث طويلا  
حتى فارقت هذا العالم فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٤١  
والحرب العالمية الثانية ، تشغل الناس بأهوالها عن هذه  
الخسارة الادبية الكبرى

طاهر الطناحى







الأنسة مي



## الفصل الأول

البارق في الظلام

بقلم الآنسة متى





دعتنى جمعية « فتاة مصر الفتاة » دعوة كريمة الى  
القاء محاضرة على أعضائها فى الجامعة المصرية • فوعدت •  
وخطر لى أن خير موضوع أتخذه هو شخصية نسائية غنية  
ندرسها معا • فتعرض لنا فى سياق البحث موضوعات همة  
فى الاخلاق والادب والاجتماع نمحصها قدر المستطاع ،  
بينما نحن نرسم من المرأة صورة شيقة • فنسجل للحركة  
النسائية فى هذه البلاد مفخرة أخرى تثير فينا الرغبات ،  
ونستمد من وحيها المثل والمعونة والفائدة جميعا

وما خطر لى ذلك الا وصحبه اسم شجى يحيا دواما  
بزفراته الحارة المنغومة • زفرات تناقلتها الاصداء يوم لم  
يكن للمرأة صوت يسمع ، فرسمت من الذاتية النسائية  
خطا جميلا حين كانت صورة المرأة سديما محجوبا وراء جدران  
المنازل وتكتم الاستئثار

وبرغم ذلك أنشأت انقب فى تاريخ المرأة المصرية • وكنت  
كلما دقت نمت « التيمورية » فى ذهنى وتفردت صورتها  
أمامى اذ لم يقم على مقربة منها صورة تسابقها أو تشبهها  
ولو شبها بعيدا • ونظرت الى بعينها المجهولتين المرمدين  
بأثة حسرتها ، باكية شجوها ، مهممة لى فى خلوتى أبياتا  
كثرت أمثالها فى ديوانها « حلية الطراز » حيث تقول :

حى الرفاق وصف للحنى أشواقى  
وحادث الركب عن تسكاب آماقى

قد جرعتنى صروف الدهر مرتغما  
لواعجبا كحميم أو كغساق  
أسال حر الهوى قلبى وأبرزه  
جفنى على يد آماقى وأحسداقى  
هذا شواظ الهوى فى القلب ملتهب  
وفى التنفس من آثار أحسراقى

فطالعت كل ما عثرت عليه من آثارها ، وجمعت من  
المعلومات عنها ما تيسر ، وفكرت فى نشر بحوث عنها .  
وكان يدفعنى الى ذلك :

أولا - أن لعائشة فضل المتقدم بيننا وهى طليعة اليقظة  
النسوية فى هذه البلاد

ثانيا - أن الجمهور يعرف انها « شاعرة » دون أن يلم  
بما تتكون منه شاعريتها ، ودون أن يقف على حال من  
أحوال حياتها أو يحلل ميلا من ميولها

ثالثا - أن النظرة فى مقدرتها انما هى اكتناه للذات  
المصرية ليس من الجانب النسوى فحسب بل بوجه عام .  
وسنرى بعد التحليل ان لعائشة مكانتها بين أدباء عصرها  
وليس بين الادبيات الشرقيات وحدهن

رابعا - انها من أعمال دولة القلم عاشت فى وحدتها  
كثيرا ، وأعطتنا فى شعرها ونثرها صورة مؤثرة . أمارأيها  
فى الحياة فحقيق بالانتباه والتبصر لأنه رأى جمهور كبير من  
الشرقيين والشرقيات كان شائعا فى زمانها وليس بالنادر  
فى أيامنا هذه ،



خامسا - ان مثل هذا البحث يرافقه سرور متضاعف .  
أليس أن جميع طبقات الناس تلذ لها الروايات ، وهى انما  
تمثل حياة أشخاص وهميين ، فكيف بحياة أشخاص عاشوا  
قبلنا وعانوا صامتين كل ما يعانیه أبطال الروايات ، هم الذين  
توفرت لديهم شروط اليقظة أيام كان الجمهور منا فى سبات  
واستكانة ! وكم من نابه قضى تاركا آثاره فاكتفينا بالثناء  
عليها وعليه ثناء النائحات على كل ميت ، فظلمناه فى مماته  
بعد أن كان مظلوما فى حياته ! فلم نستجل من آرائه رأيا  
ولم نحلل من العوامل التى كونته عاملا

كلا ، لم نحلل بعد رأيا ولم نستجل عاملا لأننا مازلنا  
فى هذا الفن الجليل أطفالا . نظرة الى مايكتب عن ثمرات  
المطابع عندنا ترينا ( مع استثناء صغير ) اننا نقابل الكتب  
الجيدة بأحد الانواع الثلاثة التالية

الاول - أن نفعل ذكرها اغفالا حتى وان كانت عنوانا  
قيما ليقظتنا الفكرية ، وخطوة واسعة تستدعى الاعجاب  
والاغتباط . ولا يبرر هذا الاغفال حتى ولا الاعتذار بأن  
الجمهور يتطلب الآن موضوعات معينة لا يرضيه سواها .  
لأن هذا الجمهور المتهم هو الذى يبتاعها ويستهلك  
طبعتها . فكيف يجد متسعا من الوقت لمطالعة كتاب بكليته  
ويضيق وقته وصبره دون قراءة سطر عنه ؟

النوع الثانى - هو اما مرقعة ذهنية لزجة مزجت فيها  
مواد الثناء والمدح والاطراء يطل بها ذكر الكتاب دع عتاك  
كونه صائبا أو غير صائب . واما تقریظ بالاستعارات  
المألوفة التى لم تعد تعنى شيئا يختم ( كما تختم جميع

الصلوات بآمين ) بكلمات لامفر منها مثل « حث الجمهور على اقتناء هذا السفر النفيس » أو « التمنى أن يصادف هذا الكتاب الشيق النافع ما يستحقه من الرواج والانتشار » أما النوع الثالث الذى أرادوا أن يطلقوا عليه اسم « النقد الحديث » فهو نقيض « التقرير » العتيق . ويفكهنى أن أتخيل أحيانا أن جميع اصطلاحات الثناء والاطراء « أضربت عن العمل » هى الاخرى حين ما فتكأكأت فى مكان واحد متماسكة متجمدة ، ففاجأتها قبلة تائهة فافرنقعت متطايرة أشظاظا ملتبهة تقمصت بفضل بعض النقدة « العصرين » قذفا وطعنا وتهجما

ومما يؤسف له أن من هؤلاء النقدة من هو ذو مقدرة كبيرة ، لو هو أنال قدرته ماتقتضيه كل موهبة من التشقيف والصقل والملاينة والكياسة الفنية ، فتذكر أن نقده ليس بالبلاع العسكرى يعلن الاحكام العرفية ، ولا هو بالمنشور الاسقى يحرم عضوا من شركة المؤمنين وشفاعة القديسين ، ولا هو بأمر « المعلم » القروى ( على الطراز القديم ) غضب على تلميذ مسكين لم يحفظ أمثولته كما ينبغى فحظر عليه أن يأكل ، أو يشرب ، أو يتحرك ، أو يتنفس بغير سماحه . كلا . ليس النقد بشئ من ذلك . ان هو الا نظرة فرد معرض للخطأ فى عمل فرد آخر معرض للخطأ يختلف عنه ميولا وتأثيرات وكفاءة ووراثه . واذا كان الادب واجبا فى الخطاب الشفهى ، فهو فى الخطاب الكتابى أوجب . وأول مظاهر الادب هو التهيب أمام شخصيات الناس لكونها شخصيات انسانية فحسب ،

فكيف بها اذا هي بذلت مجهوداً ما ، وكانت ذات ميزة علمية ،  
أو فنية وأخلاقية ؟

ان ألزم مميزات الناقد هي العطف • لست أعني العطف  
بمعنى الاغضاء والتساهل واعتبار العيوب والنقائص حسنات  
وكمالات • وانما أعني عكس التحامل والتعنت ليتهيأ له  
التجرد من ذاتيته تجرداً موقوتاً يتسنى معه الدخول في  
حياة المنقود شاعراً معه ، متوجعاً لحاجته ، مراعيًا عادات  
بيئته ومطالبها ، خاضعاً لجميع مؤثرات المحيط ، طالباً  
لحين غايته من الحياة • والا فكيف يدعى انه فهم المنتقد عليه ؟  
وان لم يفهمه فكيف يكون رسوله اليها ؟ كيف يجراً امرؤ  
على تحويل حاجات الناس الى حاجته ، وحصر عقلياتهم في  
عقليته ، وسجن قلوبهم في قلبه ، وقياس أحوال حياتهم  
بمقياس حياته ، ثم يأتينا بحكم يزعمه هو نهائياً بلانقص  
ولا ابرام ؟ ألا ان ذاك هو الهاجى وليس بالناقد • هو  
المتصلب وليس بالفنان • هو الذى يتجاهل ان النقد لا يقوم  
بإظهار العيوب ( وجميع الناس بارعون فيه ) وانما هو  
احكام التمييز والتعليل ، شأن المصور فى توزيع الانوار  
والاظلال على ما يجب أن تكون فى اللوحة الواحدة

أعلم أن بين نقدة الفرنجة كثيرين من المتحاملين ، ولكن  
ما يأتونه من ضروب الظعن والنهش لم يقنعنى بأن العصمة  
فى جانبهم ، ولم أر فى احكامهم سوى رأيهم الخاص ليس الا  
• • وهذه الصورة التى أرسم من التيمورية انما هى نظرة  
فردية فى طبيعتها ولا زعم لى انها صورة مطلقة • وأتمنى أن  
تتنبه الرغبة فى معرفتها فى نفس كل من شاء مسايرتى

فيدرسها معى متصفحا روحها ، راسما لذاته صورة منها  
خصيصة • فان الحرية الفكرية هى ماننعم به والله الحمد •  
وبها سيبقى الانسان كبيرا نبيلًا وان كان فى سواها عبدا  
ذليلا



وقد أحصيت الاسباب العمومية. لدرس الشاعرة ، ولكن  
لدى سببا آخر ، وهو مقابلة معنوية جرت لى معها منذ  
حدائتى القصوى

كان ذلك فى تلك البلدة بفلسطين وقد بدأ الحى متجليا  
ببهجة الاعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه السرى • ونصب  
صوان عظيم على سطح الدار الواسعة ليقام فيه مهرجان  
الفرح كل ليلة • فما يخيم الظلام الا وتعزف الآلات الشرقية  
تحت الحيمة الوضاعة بتألق الانوار ومعالم الزينات ، الغاصة  
بوجوه القوم وأعيانهم من تلك البلدة وضواحيها

اذ ذاك يهرع أهل الحى الى الشرفات والنوافذ وسطوح  
المنازل يتسمعون الى آهات الطرب الشائعة فى الفضاء حتى  
لتهادى أصداؤها نحو ماجاور من جبال الجليل • والاطفال  
مغتبطون بأن يحتضنهم صدر دافىء ويحميهم من أهوال  
الظلام ، فتتنبه منهم النفوس لتفهم أعجوبة الالحان

كنت على ذلك فى ليلة فاذا بصوت ينشد على نقرة  
العود :

كحل بعينك أم صبغ من الرحمن

جفن من السحر أم سحر من الاجفان



خال بخديك أم صنع من الديان  
توهت فكر الانام فى الجفن والحالات (١)  
تبارك الله ما أحلاك من انسان

سمعت وأصغيت ليس بنفسى كما كانت صغيرة وقتئذ  
بل بكل قواى الكامنة التى سينميها المستقبل وبكل ما فى  
الايام التى عشتها وسأعيشها من أمل ويأس وسعادة وشقاء .  
ولعلى استشعرت ببعض ما سألهمه بعدئذ من نجوى  
الموسيقى الشرقية . . . تقول ان الانسان يجهل كيف ولماذا  
ولد ، ولكنه يعلم أنه يحتاج الى السعادة التى لم يفز بعد  
منها سوى بفتيت موهوم . تقول للطفل والشاب انهما أكبر  
سنا مما يظنان ، وتقول للقوى الظافر انه ضعيف مدحور ،  
وتقول لكل أحد ان حياته كانت الى هذه الساعة خالية  
سخيفة قحطاء . تقول له ان فى الدنيا أموراً لم يختبرها  
وان جهله لها فقر وضنك وذل وعبودية وموت سبق الموت .  
تقول ان الاجتهاد والجهاد عقيم النتائج لان العمر قصير  
سريع العطب ، وان كل لحظة يجب أن « تعاش » بأكملها  
ليستخرج منها أقصى ما تكل . تقول ان القلب روى بالعبرات  
ينتظر اليد القادرة تضرب عليه ليتفجر كصخرة موسى . . .  
واذ تنطلق الأصوات سابحة كالاجنحة فى فردوس من  
الاحنان ، ثم تصبح متفجعة منتحبة ، ثائرة ، عاصفة تلج  
وتتمادى يخيل ان الفرع قد جوف تحتها هاوية تتراعى  
فيها الأصدااء المرتعشة . فتعكف النفس على حاجتها ووحدتها  
وحيرتها بين هذه الهاوية وذلك الفردوس ، وتطلب التوازن

---

( ١ ) كذا فى الاصل . اما انا فأذكره كما كنت أسمعه « توهت فكر  
الانام بالعين والحاجب »

والراحة فى سحر الحب وذوب الحنان... ولكن العمر قصير  
سريع العطب ، وكل ما فيه موسوم بوسمه... ولكن الحياة  
مراوغة فى استقامتها ، شحيحة فى كرمها ، وكل ما فيها  
كريم شحيح مراوغ مستقيم...

هذا بعض ما قاله لى فيما بعد شهيق الاوتار، فهل فهمت  
منه عندئذ شيئا ؟ لا أدرى . ولكن كم ذا انتقش الظلام  
بالمشاهد الخلابه لذكر ذلك الشخص العجيب الذى لم يكن  
أحد يعلم ما اذا كان جمال عينيه كحلا أم صبغا من الرحمن !  
ذاك الشخص الذى تاهت به أفكار الناس فتجمهرت لتتفت:  
تبارك الله ما أحلاك من انسان ! أتتصورون أثر هذا الرسم  
فى مخيلة صغيرة شديدة التيقظ ، وفى نفس لينة ترتعش  
أمام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكى لمرور سحابة زاهية  
فى الافق الازرق ؟



ولطالما سمعت هذا « الموال » بعدئذ من منشدين أصوليين  
وغواة يقبلون عليه اقبالهم على جميع الادوار المصرية المشوقة .  
ولكن أكانوا يعلمون من هى شاعرتة ؟  
أرجح أن تلك كانت نشوتى الموسيقية الاولى . فأبقت  
فى أثر ، كأنما هو إشارة من روح التيمورية تنبهنى . وما  
تبينت تلك الإشارة الا عند مطالعة ديوانها والاهتداء الى ذلك  
« الموال » فيه . فأدركت أنها حدثتني منذ زمن بعيد تلك  
الروح التى غاصت نفثاتها الحزينة الطروبة فى أرواح  
المنشدين فحبست على أوتارهم الحاثا ، وانطلقت على أمواج  
الهواء فنا وتغريدا وابداعا . وهكذا تلك المرأة التى وقعت

زفراتها فى وحدة خدرها وراء الحجاب ، صار الشجن  
والطرب منها فعلا تتناقله أجواء الاقطار وتتأثر به لىالى  
الافراح فى نازح الديار

كذلك برقت التيمورية فى تلك الظلمة وكان ذلك النور  
منها رمزا لنور آخر خطير • ان عائشة عصمت ظهرت حين  
كانت المرأة فى ليل دامس من الجهل • فجاءت بارقا يبشر  
المرأة المصرية ومستقبلها







## الفصل الثاني

عصر الشاعرة



## الحياة الفكرية والاجتماعية

بزغ القرن الخامس عشر على ربوع الغرب فجرا ما برح  
يشتد ويعمم حتى شمل بنوره نهضة التجدد الكبرى . وما  
تولى الا وقد جاء بحادثين بدلا حظ البحر الابيض المتوسط  
وحظ مرافئه في الحركة التجارية والعمرانية . وهما  
اكتشاف فاسكو دى جاما طريق الهند عن طريق رأس الرجاء  
الصالح ، بعد ان شق كولمبس البحار وصولا الى الاقطار  
الامريكية . وبينما التطور يتتابع في الغرب حثيثا سواء في  
العلم واسباب المواصلات وامتزاج الشعوب والصناعة  
والتجارة والثروة والحرية الفردية والكرامة القومية - كانت  
مصر ، وقد حرمت من مرور تجارة الشرق ، تتقهقر ببطء  
حتى انقطعت العلاقات بينها وبين العالم . وظلت ثلاثة قرون  
يحكمها بالاسم ولاية عثمانيون وتدفع الجزية السنوية الى  
تركيا الا انها تعثو فيها تلك الفئة الطاغية من المماليك  
« البكوات » . ففشيت في انحائها الخزعبلات والاوهام ،  
واشتد العوز مهددا بالامراض والمجاعات . والدول التي  
تتنافس الآن في اكتساب صداقتها كانت قد نسيت حتى  
الوجود من هذه البلاد الفريدة بتربتها وتاريخها وحضارتها  
العريقة ، الفريدة بموقعها الحربي المنيل النفوذ السياسي  
والرواج التجارى لجمعه بين القارات الثلاث وسيطرته على  
طريق المشرقين

أى عجاجة لا تثير أعمال الرجل العظيم ! هبط نابليون الشرق يستغله ويقيم عليه الركن الأول من عرش أراد أن يخيم ظله على الشرق والغرب جميعا . فهبت الدول تقاتل الجبار وتتحالف لهزيمة جحافل . وصار القطر المهجور محجة الفايات لان البطل ادخله في خريطة اطماعه جاءت القوة العثمانية بقيادة القبطان حسين باشا وتكاثفت والحملة الانجليزية في الرحمانية فزحفتا معا على القاهرة . وسلم الفرنسيون نهائيا في سبتمبر ١٨٠١ بعد الاحتلال بثلاثة أعوام دون جنى اية فائدة حربية . وكم من عمل يؤتى في سبيل غاية تفشل ، فاذا به موفور العائدة لغاية أخرى !

فقد أسفرت الاغارة الفرنسية عن ثلاث نتائج الاولى قومية . اذ شعر المصريون بأهمية بلادهم وبمقدرة الشعب على ازعاج الحكومة المستبدة اذا هو اتحد وتضامن . كما لمحوا وميضا من المدنية الاوربية الحديثة ورغبوا في اقتباسها الثانية علمية - اذ استصحب نابليون جماعة من العلماء الاخصائيين . فدرسوا طبيعة البلاد ومواردها ، وادخلوا الطباعة ونشروا الصحف وأسسوا « المجمع العلمى المصرى » وجاءوا في مختلف الموضوعات بابحاث قيمة ، منها وصل البحر الابيض بالبحر الاحمر الذى سيستفيد منه دلسبس واحداثوا اصلاحات كثيرة ذهب جلها انما بقى منها جرثومة ستتمو بعد الآن على يد حكومة البلاد

الثالثة سياسية - ان بين ضباط القوة العثمانية كان ذلك الرجل الذى ولد هو ونابليون وولنجتون في سنة واحدة « ١٧٦٩ » وحكم مصر بعد محوه للمماليك . . . وبين رجال



محمد علي رجلان يختلفان أصلا وعملا أحدهما كردي وهو محمد تيمور بن اسماعيل بن علي كرد ، الذي كان ضابطا وساعدا في استئصال دولة المماليك حتى صار من خاصة الوالي . فترقى في المناصب من كاشف ، الى محافظ ، وتوفي سنة « ١٢٦٤ هـ » . « ١٨٤٧ م » والآخر تركي الأصل وهو عبد الرحمن افندي الاستانبولي الذي كان كاتباً في الديوان الهمايوني عند السلطان سليم الثالث ثم صار ذا مكانة عند محمد علي حتى انه بعد وفاته دفنه في القلعة . وكان لسلالة هذين الرجلين ان تحمل علامة اليمن . فقد تزوج محمد تيمور بابنة عبد الرحمن افندي فكانا جدي الشاعرة



ولدت عائشة سنة ١٢٥٦ الهجرية قبل وفاة محمد علي بتسعة اعوام ، وتوفيت بعد تولية عباس الثاني بعشرة اعوام أي انها شهدت تطور بلادها على عهد أربعة ولاة هم محمد علي وابراهيم وعباس الاول وسعيد ، وثلاثة خديوين هم : اسماعيل وتوفيق وعباس الثاني

كان لمحمد علي مطامع سياسية معينة فبذل المجهودات لتأييدها في الداخل بإنشاء المدارس الحربية والمستشفيات العسكرية ، وتنظيم الجيش وتخريج الأطباء ، ونشر المعارف وارسال البعثات الى اوروبا لتتلقى العلوم الفنية والميكانيكية والحربية . اما في الخارج فكان يؤيد مطامعه بالحروب والفتوح

وتتابع التطور ضئيلا خلال ولاية ابراهيم التي لم تدم

سوى شهرين اثنين ، وولايتى عباس الاول وسعيد حيث كان غرض التعليم محصورا فى تخريج موظفين للحكومة وضباط للجيش . وان امتاز عهد سعيد بأمور ذات شأن ، منها وفاء ديون الحكومة ، وحذف الجمارك الداخلية والاحتكارات ، وارجاع الحرية الفردية وحق الملكية الى الفلاحين . بعد ان كان محمد على قد جمع الاملاك بين يديه جاعلا الحكومة تسيطر على كل تجارة مع الخارج . وتم فى عهد سعيد انشاء القناطر الخيرية التى بدىء بها بامر من محمد على . وسعيد هو الذى فوض الى صديق طفولته ديلسبس أن يباشر حفر قناة السويس

بيد أن الاندفاع الاكبر جاء فى عهد اسماعيل فعاد الى معالجة مشروعات محمد على مرسلا البعثات الى اوربا ، موجدا المكتبة الاهلية ومتحف الآثار المصرية ، حافرا الترع للرى ومجملا المدن الكبيرة

وأصدر امرا فى اواخر عهده يعلن رغبته فى أن يحكم بواسطة مجلس نظار ، بعد أن كان اصدر امرا بتشكيل مجلس نواب تأخذ الحكومة رأيه فى ما تسن وتحد من النظم والقوانين وكان كاهل مصر قد اثقل بالديون مما ادى الى قبول الرقابة الاجنبية على المالية المصرية . فقام يوما ينكر على الموظفين الاوربيين حق التدخل فى شئون بلاده . فحملته الدول اثر ذلك على التنازل لولده توفيق تحت الرقابة الفرنسية الانجليزية فيما يتعلق بالمالية

وقامت الثورة العراقية مطالبة — فيما طالبت به — بالغاء الرقابة الاجنبية على المالية المصرية . وكان ما كان من احتلال انجلترا وتفويضها الى لورد دوفرن درس مختلف المشاريع

وتنفيذها في مصر . وبعد توقف القطر عامين استطرد فيه التنظيم والتقدم بحيث تمكن القاضي المفكر قاسم امين ان يقول في رده الفرنسي على الدوق داركور :

« ان الحرية التامة سواء في التفكير والكتابة اصبحت مباحة ، وان المصري يتمتع الآن بكل ما ضمنه الاعلان الشهير من « حقوق الانسان » : وان « الجميع يتوقون الى العلم ويتعلمون معتبرين ان هذا هو السبيل الوحيد للنهوض . منذ ثورة عرابي انتبه الشعب المصري لمكانته وكرامته . استنار ذهنه فجعل يهتم بنظام الحكم وبالشئون العامة يقدرها ويحكم لها او عليها . وبالجمله فان مصرا تيقظت بالفعل » (١)

نشر قاسم هذا الكتاب سنة ١٨٩٤ : ولما توفيت عائشة بعد ثمانية اعوام كانت حركة التطور في ازدياد وقد اضيفت اليها عناصر فنية متنوعة



اهى يقظة الفكر عند الافراد تهىء اليقظة القومية ام هي يقظة الجمهور ومطالبه والاحوال المحيطة به التي تخلق الافراد وتحبوسهم بالمواهب الضرورية ليتكلموا بصوت الجماعة ؟

أظن ان التفاعل هنا محتم كما هو في كل امر آخر . فالافراد يخلقون الجمهور والجمهور يخلق الافراد . لان القوى البشرية محكمة الترابط فيما بينها ، فاذا انتبهت

احداها تأثرت بذلك الانتباه جميع القوى وهبت متجددة نابضة ، مبدعة . كأنها الصوت الواحد يحدث هزة في مكان من الهواء فتتناقله الموجات المسارعة حتى يرن في اقطاب الفلك جميعا

ولكن يخيل انه قبل تنفيذ اى عمل يقتضى رسم خريطة خيالية جليلة في الذهن الناضج الصافي . خريطة من الخرائط التى يسمونها المتكلمون « نظريات » . وهذه النظريات التى تشئ لذكرها شفاء العلميين هى من الاهمية بحيث ان الطبيعة لا تجمع عادة ( وان فعلت نادرا بشذوذ جميل ) بين مقدرتى النظر والعمل في شخص واحد . اذ ان لكل منهما صفات تنافى صفات الاخرى . يهوى النظريون الخرائط الذهنية ، فينظر فيها سواهم بعين النقد والتمحيص مستخرجين منها ما لاءم حاجة الوقت ، وينفذها آخرون فتصير شيئا محسوسا يستخدم ويخدم . كانما هى « المثل الافلاطونية » التى بموجب نظريتها لا تكون المحسوسات الا انعكاس افكار كائنة في ذهن الاله الاعظم . تلك هى حكاية التلفراف اللاسلكى التى ابتدأت مع مكسويل وهرتز وبرنلى نظريات وتعديلات علمية ، فصارت مع ماركونى عاملا آليا تعنوا له مجارى الهواء فى نقل الافكار . وتلك هى حكاية الفواصات التى كانت فى كتب جول فرن الفرنسوى رؤى واخيلة علمية ، فبسط اديسن الامريكاني لوزارة بحرية بلاده امكان انشائها فى تقرير نسخه الالمان سرا ، وسيروها خلال الحرب مدنا متحركة تخفر البحار وتصادر سفن الاعداء وسفن من كان لهم مواليا وظهيرا . وتلك هى حكاية الثورة الفرنسية



اعدها الكتاب والمفكرون ، والثورة الروسية التى مهد لها  
الروائيون والشعراء سبيلا



وانتحت الحياة الجديدة فى مصر هذا النحو . فانه الى  
جانب التحسين الزراعى والحربى والميكانيكى والمدرسى ،  
ظهرت حركة اخرى راودها الغموض فى البدء انما جعلت  
تتسع وتنجلي مع الايام . نشأت عن تواصل الاحتكاك  
بمدنية الغرب سواء بواسطة النزلاء المقيمين فى هذه الديار ،  
وبعثو الشبان العائدين من اوربا وقد تطعمت نفوسهم  
بجديد النزعات وحديث الآراء ، وجماعات خريجي  
المدارس المصرية وقد سرت اليهم عدوى الفكر العصرى  
خلال ما تلقنوا من الدروس الاورباوية . وقدم مصر جماعة  
من نوابغ السوريين واحرارهم النازحين اثر النكبات فكان  
صدم افكارهم بافكار المصريين جزيل النفع للفريقين  
وللفكر العربى عموما .

بلغت تلك الحركة اشدها فى عهد اسماعيل وقد بدت  
ادبية اجتماعية بعد ان كانت ميكانيكية علمية ، يمتزج  
فيها استيحاء الجديد وتجديد القديم . الاستيحاء بالاطلاع  
على مؤلفات الاجانب ونقل ما تيسر نقله منها الى العربية .  
والتجديد باعلاء شأن روح اللغة . اذ كانت يومئذ آلات  
مطبعة بولاق الاميرية والمطابع الاهلية الاخرى تشتغل  
لاعادة نشر مؤلفات «المدرسين» من كتاب الاسلام وعلمائه  
الاقدمين . وكثرت الصحف حتى بلغ عددها السبعة  
والعشرين فترتب .

« على نشر اغراض عامة في تلك الجرائد ومباحث علمية  
وادبية في صحيفة روضة المدارس وتخريج نوابغ من طلبة  
مدرسة دار العلوم على يد اسناذهم المرحوم الشيخ حسن  
المرصفي واستفاده بعض النبهاء من طلبة الازهر بطول  
اختلاطهم بالمرحوم الشيخ جمال الدين العالم العصري حين  
ذاك ، سلوك سبيل اخرى في الانشاء تستمد منها الاقلام ،  
فعوضا عن الاشتغال بكتابة التهانيء او البشري بمواود او  
التأسي على مفقود او المدح او الهجاء او العتاب او الاستعطاف  
او التغزل بالغيد والغانيات او مكاتبة الاصحاب والاحباب  
والرجاء والاعتذار التي هي من الاغراض الخصوصية مالت  
الاقلام الى الكتابة في حب الوطن وما يستلزمه من خير العمل  
والحث على الفضيلة والتباعد عن الرذيلة وحق الحاكم على  
المحكوم والمحكوم على الحاكم وغير ذلك من شرح حكم عالية  
هي من الاغراض العمومية . كل هذا كان اعظم مرشدا  
للمطلعين عليها حتى ترتب على ذلك تغير عظيم في الاساليب  
الانشائية وفي الحركة الفكرية وفي الشعور بالذاتية » ( ١ )

ذكر هنا امين باشا سامي ذلك الرجل الشرقي الشبيه  
بفلاسفة الماضي كسقراط وسواه الذين لم يكتبوا وانما  
ارسلوا تعاليمهم ضمن المحادثات العادية . وكانت اهم  
المحافل الفكرية هي الحلقة التي تعقد حول جمال الدين  
« في القهوة التي قرب قهوة البورصة القديمة » « ولعل  
تلاميذه لا ينسون في مستقبل الايام ان يحيوا ذكره بينهم  
في ذلك المكان » . هذا رأى الدكتور شبلى شميل الذى

---

( ١ ) امين باشا سامي في كتابه « التعليم في مصر »

عرف الافغانى وجالسه وناقشه . ويتابع الحديث عنه  
قائلا :

« لم يكتب فيما أعلم شيئا (١) وانما يلقي على آخرين  
مقالات ضافية تنشر في جريدة مصر (٢) تحت اسمائهم .  
ولولا الشيخ محمد عبده يده الكتابة لما كان لصوته صدى  
ولبقيت تعاليمه في صدور اكثر الذين تلقوها عنه وماتت  
معهم اذا كانت كل تعاليمه حديثا يلقيه بحسب  
مقتضى الحال » . « وقبل جريدة مصر كانت شهرة جمال  
الدين مقتصرة على الاخصاء وأعماله محصورة في دائرة  
مريديه . واما جريدة مصر فكانت سببا كبيرا لاذاعة صيته  
ونشره في الآفاق » . « ولم يتعبأ له ان وقف خطيبا في قوم  
الامرة واحدة اظهر فيها انه خطيب مفوه ايضا . وكان ذلك  
بمسماى اديب اسحق وفي تياترو زيزينيا على محضر من  
جمهور غفير من علية القوم من رجال ونساء من السوريين  
والمصريين . فالقى خطبة اجتماعية سياسية ابدع فيها معنى  
ومبنى وجراة وبقي يرتجل الكلام نحو ساعتين من دون ان

(١) يعنى ان جمال الدين لم يكتب بيده مقالات للصحف المصرية . الا  
انه انشأ في باريس « العروة الوثقى » التى أصدرها بالاشتراك مع  
تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده . وتوفى عن كتابين أحدهما تاريخ  
الافغان والآخر نقد للفلاسفة الماديين نقله عن الافغانية الشيخ محمد عبده  
ايضا

(٢) يعنى جريدة مصر التى كان يصدرها سليم النقاش وأديب اسحق  
ثم ألغيت ورخص لهما باصدار جريدة « المحروسة » محلها

يبدو ادنى تعب او يتلعثم حتى خلب العقول واقام الناس  
واقعدهم « (١)

جاء الافغانى مثالا محسوسا لتفاعل الافراد والجمهور .  
اذ رأى ببصيرته النافذة ما يحرك نفوس اخوانه من العوامل  
المستفزة نفسه ، دون ان يهتدوا الى كيفية التلخيص  
والافصاح . فتكلم فيهم بلغته « الممزوجة ببعض لكنة  
اعجمية تنم عن اصله الغريب وانما وقعها على الاذن كان  
محبوبا (٢) . تكلم فيهم بفصاحته النارية فكان له اليد  
الطولى فى تحريض الافكار واضرام الثورة العربية . فهو  
زعيم الناقمين فى ذلك العهد ، هذا الافغانى الذى ارسلت  
شعلة روحه الشرر من افغانستان ، الى بلاد فارس ، الى  
وادي النيل حيث مر كتيار لفاح .

شعر الفكر المتغير المتكيف بوجوب تبديل استتاره  
والتجلى بزى يوافق صورته الخفية فكان ذلك التطور فى  
نتاج القرائح والاقلام من شعر ونثر ، وان كان فى الشعر  
اسبق اما فى النثر فأوضح . وظهرت مع الشعر الفصيح  
ضروب من الشعر العامى كالموالي التى لم يأنف معالجتها  
نفر من كبار الشعراء . وتجدد « الزجل » الطلى . وأما  
وضوح النثر فجاء من انتشار العلوم الطبيعية والرياضية  
فمال الناس معها الى احكام المعنى واخراجها من معمعة  
السجع والجناس والاستعارة والتورية . وبديهي انه لم

---

( ١ ) نُبسخ هذه النبذة من فصل للدكتور شميل نشر فى مجلة « الزهور »  
( فى ديسمبر ١٩١٢ ) التى اقتطعت ذلك الفصل من مجموعة مذكرات  
قالت ان الدكتور كان يومئذ يشتغل بوضعها باسم « حوادث وخواطر »  
( ٢ ) الدكتور شميل نقلا عن الفصل المذكور فى « الزهور »

يفلح في ذلك أولا غير النفر اليسير ، وتفرقت من الآخرين الطرق . فتحدى بعضهم أسلوب الاقدمين من صدر الاسلام او من صدر العباسيين . وتسربت الى اسلوب غيرهم ركافة لغة الدواوين التي لم نخلص منها حتى في هذه الايام . ولعل اقرب الاساليب منالا هو اسلوب الصحافة التي كانت وما زالت عندنا ميدانا للعلماء والشعراء والادباء ، وقد تحتم عليها التوفيق بين مختلف الاذواق والكتابة بلغة يفهمها الجميع على السواء . ولصحافتنا في ذلك تاريخ افر . وما فتىء التحسن يبدو عليها من عام الى عام وهى عامل كبير في رفع فكر المجموع ، وربما كانت العامل الاكبر لانها العامل الاشمل .



واذا كانت الحالة الفكرية والاجتماعية في تفاعل مستديم ، فكيف كانت يا ترى العيشة العائلية ؟ كيف كانت حالة المرأة ؟ اكان يصل اليها صدى الخارج ؟ اكانت تشتغل لرقى بلادها في دائرة الاسرة وتدرك معنى المطامح القومية ؟ هالك شبه جواب عن هذه الاسئلة عند امين باشا سامى الذى يخبرنا انه في عصر محمد على كان الاهالى

« عقبة كؤودا في طريق تعليم بنيتهم . غير انهم لما تحققوا ان تعليمهم في تلك المدارس ومكثهم بها ينقل حالة ابنائهم الى حالة ارقى من التى انتشلوا منها تحققت الرغبة عندهم » .  
« اما تعاليم البنات فلم يصادف تسهيلا فى عصره حتى اضطر الى اصدار امره الى حبيب افندى فى ٤ جمادى



الثانية سنة ١٢٤٧ هـ ( ١٠ نوفمبر سنة ١٨٣١ م ) (١) بشراء  
عشر جوار سودانيات صغيرات السن ينتخبين بمعرفة كلوت  
بك لتلقى فن الولادة ومعهن اثنتان من اعوانت الحرم يتعلمان  
فن الطب والجراحة « (٢)

كانت عامة الفتيات تتعلم التطريز وأشغال الإبرة سواء  
في بيوتهن أو بالتردد على المعلمات القبطيات وغيرهن .  
ومنهن من يتعلمن القرآن على فقيه البيت ، ونفسى  
تحدثنى أن ذلك الفقيه كان ينطبق عليه وصف صاحب  
مذهب « هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد » .

ليأخذن التلاوة عن عجوز  
من اللائى ففرن مهمات  
يسبحن المليك بكل جنح  
ويركعن الضحى متأثمات  
فما عيب على الفتيات لحن  
إذا قلن المراد مترجمات  
ولا يدنين من رجل ضير  
يلقنهن آيا محكمات  
سوى من كان مرتعشا يداه  
ولمته من المتشمات (٣)



أليس هذا قد رأى أكثر الأهل في معارف البنت  
وفى الذين يتولون تعليمها ؟ بيد أن السيل متابع مجسراه

(١) أى قبل ولادة عائشة بتسعة أعوام

(٢) « التعليم في مصر »

(٣) « اللزوميات » لأبى العلاء المعرى

والوفود الأوروبية ترد أفواجا ومعها البعث الدينية تؤسس المدارس للبنين والبنات . فأنشئت مدرسة راهبات الراعى الصالح فى شبرا منذ ١٨٤٤ ، وتلتها مدرسة الأمريكان للبنات بالازبكية سنة ١٨٥٦ ، ومدرسة راهبات الفرنسيين كان الايطالية سنة ١٨٥٩ . وبينما مدارس الجوالى تتكاثر فى أنحاء القطر أسست مدرسة البنات بالسيوفية سنة ١٨٧٣ ( ولم يسبقها من المدارس الاميرية سوى مدرسة الممرضات والقوابل منذ عهد محمد على ) . وهى المدرسة التى تعرف اليوم بالمدرسة السنية . وتلتها مدرسة القربية سنة ١٨٧٤ ثم انضمت ومدرسة السيوفية وعرفت بها . وكان عدد المدارس للبنات والبنين فى ازدياد سريع حتى أنشئ منها فى حياة « عائشة » ما يقارب الالف من مدارس اميرية ومدارس تابعة لمجالس المديريات واهلية واجنبية عدا المعاهد الدينية والكتاتيب

بيد ان المرأة لم تكن وصلت الى دور تثقيف نفسها . بل كانت راتعة فى انقطاعها وجهلها شأن من اعتاد الهواء الفاسد يضيق منه النفس ويعتل اذا هو انتقل الى حيث الهواء نقى . وانما هى الاقلية المتنورة من الرجال التى كانت تطلب فى الزوجة شريكة وصديقة ، وللإبناء التربية المنزلية الصالحة ، وللبيت ذلك الجو المفرح الذى تخلقه المرأة بعدوبة حبها اذا هى قرنت بالحصافة والمعرفة . وكان أولئك الرجال يتشاكون الغم فيهم بينهم وليس من يقتحم مصادرة الراى العام . حتى انبرى قاسم لا يبالى بتطعين الحراب ، هادئا كمن جس مقاتل الخصم وتسليح بصارم اليحق واليقين .

## الحياة المنزلية

نحن حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، فى مدينة القاهرة  
عاصمة الديار المصرية قبل ان تبدل معالمها يد الهدم  
والبناء . وقبل ان تصقل بعض جوانبها يد التحسين  
الجديد . مدينة شرقية توالى عليها نواكب التاريخ  
واختلطت فيها اجناس الشعوب وهى لسرها الطويل كتوم  
توزعت فى مختلف الجهات منها البقايا الاثرية والجوامع  
البديمة الفاتكة على الثلثمائة ، والحمامات والاسواق  
و « السبل » المرمرية المقدمة ماءها العذب لكل ظمان  
يرتوى وفوق المدينة الجاثمة ترتفع المآذن بقاماتها الهيفاء  
فيخيل احيانا ان الانسانية اعلت هياكلها فى الهواء الازرق  
ليس ليصل صوت المؤذن الى المؤمنين على مسافة بعيدة  
فحسب ، بل ليكون المبتهل فى صلاته اقرب الى باريه  
وارسخ فى الثقة بالاستجابة . وطورا تبدو تلك المآذن كأنها  
حراب أرسلتها ايدى الاسلام تنبىء الجائب بانها على دوام  
الاستعداد لدفع الطوارئ عن الدمار .

فى الشوارع والساحات تبصر اخلاطا من الثروة والفقر ،  
اناسا يرتدون الاثواب النفيسة وعليهم دلائل النعمة والرخاء ،  
وآخرين يرتدون الاطمار البالية وعليهم دلائل الذل والشقاء .  
ولكن « رغم مشهد الفقر والمرض عند الشعب فان شوارع

القاهرة ليست لتوحى الاسف والخيبة اللذين يشعر بهما  
المسافر في الآستانة ذات المنظر الفخم من الخارج ، المحزن  
في الداخل . نعم ان اكثر هذه الشوارع مظلمة ملتوية متشابكة  
الواحد في الآخر كأنها مجاهل التيه ، يعترضها هنا وهناك  
ممرات خفية وغاية ما يسع عابرها ان يستسلم لحكمة  
دابته وثقافتها . على انها نظيفة يتعهدونها بالكنس والرش  
المنظم . وبدلا من بلاط الاستانة الشنيع وتلك السلالم  
الحجرية في غلطة وبيرا ، لا تجد هنا الا ارضا مستوية  
صلبة تسير فوقها بلا عناء . اما المنازل القائمة على جانبي  
الشارع فهي في الغالب اشبهق من بيوت عاصمة تركيا  
واتقن صنعة . ففي كل وقت تبصر العين الواجدة  
المزخرفة بالنقش العربي ، او النافذة ذات المشبك  
الخشبي الدقيق الفن الانيق التفاصيل ، فيكاد المرء يغتفر  
لاجلها الغيرة التي اقامت هذا الحاجز بين داخل المسكن  
وتطلع السابلة » ( ١ )



كاتب اجنبي يجيئنا بهذا القول لا يرى في ذلك «الحاجز»  
سوى رمز « للغيرة » . كأن الغيرة من واردات الشرق التي  
يتفرج عليها الغرب ولا يكابدها . ولكن هلم نقف امام احد  
هذه المنازل ، امام المنزل الذي نتطلع الآن نحو الماضي  
لاجله . هلم نستعين بالخيال حين لاوسيلة سواه ، فنخترق  
جانبا من الحديقة الحافلة بالورد والرياحين تحت رعاية

---

( ١ ) "De Constantinople a Caire", par Xavier Marmier  
وقد كتب هذه الرحلة سنة ١٨٤٥ - ١٨٤٦ صاحبها العضو في الاكاديمية  
الفرنساوية

الاشجار ذات الظل الوارف . هو ذا الاغا يسير بنا الى دار  
الحريم حيث تلقانا طغمة من الجوارى والخاديات وتدعونا  
الى الجلوس فى الفسحة الواسعة الموفرة النور والهواء .  
ارضها تختفى وراء البسط العجمية والطنافس الفاخرة .  
والمقاعد والارائك تدور فى جوانبها ، تتخللها الطاولات  
الصغيرة وعليها ادوات التدخين من علب اللغائف واطباق  
صغيرة للرماد ( منافض ) . وعلى جدرانها تتألق مياه  
المرايا العميقة الصافية . وقام فى وسطها خوان كبير من  
الخشب المسوى بالذهب ، تتدلى فوقه الثريا العديدة  
الشمسوع المنحدرة من السقف المصنوع من خشب الجوز  
المجمل بالنقش والزخرف بل هى هبطت من صميم رسم  
مثل وردة كبيرة تناوب فيها الحفر والتخريم بنتوء مستدير  
وسيم . فكان النور خلال تلك التخاريم من جهة الى جهة  
نفيذا .

هذه هندسة اكثر منازل الطبقة العليا ومادونها قليلا  
فى ذلك العهد وما بعده حتى اوائل القرن العشرين . أما  
البذخ والترف فى بيوت الكبراء فيبدو فى اتساع الغرف  
والردهات ، وفى تعدد المقاعد والمرايا ونفاسة الاقمشة  
والثريات والطنافس . ولا بد من قاعة أو قاعات  
للاستقبال . على أن السيدات يقابلن عادة فى هذه  
« الفسحة » فسحة الدار ، كل شهور الصيف الطويلة .  
وهنا تنعقد اجتماعات الاسرة سواء فى الليل والنهار .

اقتبس هذا الوصف من كتاب الزوجة الاولى لصاحب  
الدولة حسين رشدى باشا . كانت السيدة فرنسية  
ووضعت كتابين بلغتها وقعتهما باسم « نية سليمة »

المستعار فوصفت فيهما المجتمع المصرى وعاداته على ما  
ادرسته فى اواخر القرن الماضى . وانما استندت على هذا  
الكتاب (١) لأن هدى هانم شعراوى التى تفضلت فأعارتنى  
مع الكتاب الآخر (٢) قالت لى أنه أصدق ما قرأت من نوع  
هذه الكتب فى وصف العادات المصرية ، وأكثرها انصافاً  
وأقربها إلى الواقع . وإذا أضفنا إلى ذلك ان « نية  
سليمة » عاشت فى ذلك المجتمع وعاشرته وأحبته ، غير  
ضاربين صفحا عن بطء التطور الاجتماعى ، ولا سيما فى  
الشرق وفى الأيام الخالية ، أمكننا ان نقول ان هذا الكتاب  
وان انشئ فى اواخر القرن التاسع عشر فهو يقرب كثيرا إلى  
ما كانت عليه فى أيام عائشة .

فلتكن اذن « نية سليمة » دليلنا



هى تقول لنا ان هذه السيدة الجميلة البشوشة التى جاءت  
مرحبة وجلست على المقعد قربنا هى ربة المنزل . أما أولئك  
النسوة الجالسات على « الشلت » فهناك خبرهن :

« انهن من المترددات على المنزل وليس لهن ان يجلسن  
قرب السيدات على المقاعد ، وان كن أرفع قدرا من الخادومات  
الجاثمات على البساط او على الحصرة » . « هن من الجوارى  
البيض المعتوقات ومن الجوارى السود اللائى حججن .  
ومعهن الدلالات بأثعات الاقمشة والبضائع . ومعهن المراضع  
واخوات الرضاعة وقارئات القرآن وسواهن من النديمات

(١) 'Harems et Musulmanes d'Egypte', par Niya Salima

(٢) أما الكتاب الآخر فهو رواية "Les Répudiées" التى طبعت

سنة ١٩٠٧ قبيل وفاة المؤلفة



ومن المختلفات الى المنزل لاغراض شتى . يأتين ويجلسن القرفصاء كل اثنتين او ثلاث على « الشلثة » الواحدة ، ويشتركن فى الحديث ويروين الاخبار . « اما الزائرات المهمات فتاتين وبعد كلمات الترحيب وتقديم لفائف التبغ تحضر القهوة التى يستغرق تقديمها من الزيارة زمنا . فالعادة فى الطبقة المتوسطة ان يؤتى بها مصبوبة فى الفناجين على طبق من الفضة . اما فى البيوت الكبيرة فيتعاون فى تقديمها ثلاث خادمت على الاقل : احدهن تحمل الطبق يجمله غطاء مخملى مزركش وقد تهدلت من حواشيه الهدبات الذهبية والفناجين مصفوفة عليه . وتحمل الخادمة الثانية ابريق القهوة فى شبه مجمره فضية امتلات بالرماد المتلظى . بينما الخادمة الثالثة تصب القهوة ، وتدور بها على الزائرات » ( ١ )

اما الاحاديث فهى طبعاً لا تختلف عن المؤلف حتى اليوم فى الدوائر النسائية غير المتنورة و . . وربما المتنورة أحياناً . موضوعات لا تنفذ مادتها كأنها الماء كلما غالبت فى الاسراف منه زاد تدفقاً وسيولاً . وتلك الموضوعات هى الولادة ، والخطبة ، والزواج ، والموت ، وخصام الأزواج ، وخصام العائلات فيما بينها ، والثروة ، والافتقار ، الخ الخ . ولكن يخيّل ان السيدات المصريات لم يكن يومئذ لتنطبق عليهن التهمة التى يحب الرجال أن يلصقوها بالمرأة لأن « نية سليمة » تقول بجلاء انه :

« ليس من الغريب ان يقطع الاحاديث غير مرة سكوت

طويل وربة البيت لا تقلق من جراء ذلك ولا تنجهد ذهنها للاهتمام الى موضوع جديد. فقد حضرت مجالس السيدات قليلات التزاور فيما بينهن يظللن جالسات معا دقائق طويلة ثم يفترقن دون ان يتبادلن كلمات التبجيل المبتذل والمجاملة الشائعة ذات المراسيم المسهبة والجمال المهلهلة . فهي تنطوى على تمنيات ودعوات صالحات يتيسر ترديدها مرات عديدة دون ان يكون فى ذلك غضاضة او خشية الهزوء والنكتة » . « ثم تأتى زائرات أخريات فتنهض صاحبة المنزل للاحتفاء بهن ويحذو حذوها الجميع ، فتلقى الواصلات الجديرات التحية ، ولكن ما ادق الفوارق فى أساليب التحية ! انهن يقبلن يد السيدة المسنة ويدعونها « عمتى » . ويقبلن وجنة مثيلتهن فى السن والمرتبة ويدعونها باسم « الاخت » العذب . ويقابلن معارفهن الاقل مؤالفة بتحية « تركية » . اما السيدات الاوربيات فيصافحنهن باليد « (١)

ان اللائى يحضرن اجتماعات السيدات المصريات يعلمن ان وصف صنوف السلام ما زال حيا بحياة الواقع فى ايامنا . ولقد كانت دواما ساعات السلام لى اوقات اغتباط ودرس اتبين فيها العادات الراسخة واحلل اسبابها ما أمكن ، بيد ان هناك نوع سلام آخر يدخل فى الصنف الثانى الذى وصفته « نية سليمة » الا انه يتجاوزه للافراط فى التودد والتعاطف . وهو ضم الخد الى الخد مرة بعد اخرى وارسال قبلات سريعة متوالية فى الهواء يسمع لها مصيص شائق كأنه تغريد طائفة خاصة من الطير . وفى ما يتعلق

بالتحية « التركية » او « اللاتوركا » كما يقولون فهي كما تقول « نية سليمة » :

« كم من نبل وكياسة في التحية التركية وكم تنويعها ميسور ، فاليد اليمنى تنفتح بهيبة وبلا توتر وتستطيل في تحدر أكثر أو أقل بعدا حتى ليصل الى الارض عند الضرورة . ثم ان النصف الأعلى من الجسد الذي انحنى يعود الى التقويم والاعتدال مسائرا حركة اليد التي تدنو من الفم أولا ، ثم من الجبهة دون أن تمسها ، وتركن أخيرا الى موضعها تاركة خلاء في الهواء كما يترك مرور جناح الحمامة »

« والوداع يشبه السلام فتعاد عنده طقوس الاحتفاء والتبجيل ذاتها . اما التفصيل الحري بانتباه خاص فهو ان السيدات اللاتي لا يرين مطلقا ازواج صاحباتهن يحسبن مخلات باللائق ان لم يبعثن اليهم بالسلام مع زوجاتهم . وربة البيت لا ترافق زائراتها بل تتقدمهن الى الباب فيتبعنها » (١)

لطيف هذا ! ومعناه المشيعة تسهل لزائراتها السبيل وانها تخرج من منزلها على نوع ما بخروجهن او هي تودع معهن شيئا منها . واني لأوثر هذا على السير وراء الزائرات كمن تطردهن طردا وتقتفى أثرهن لتكون على ثقة من ذهابهن والتثبت بانها تخلصت لحين ما من ورطة وجودهن .. !



هب ان هذا المنزل الذي زرناه الآن متبينين فيه بعض

---

“Harems et Musulmanes d’Egypte” ( ١ )

عادات ذلك العهد هو منزل اسماعيل تيمور باشا (١) ،  
وان تلك السيدة ربة البيت التي رحبت بنا هي والدته  
عائشة ، « وهي جركسية الاصل معتوقة والدها اسماعيل  
تيمور باشا » (٢) فأين عائشة الصغيرة نفسها ؟ أين  
الشاعرة العتيقة التي نلتفت اليوم الى معالم الامس لننال  
لمحة من حجر نعمتها وما فيه من خطوط الفتها فكان  
هيكل زفرائها وهديلها ؟

الا فاعلم ان عائشة اليوم بنية صغيرة لا تحضر مجالس  
« السيدات » ولا تختلط بالزائرات الا لتقبل ايديهن ان كن  
من صديقات والدتها وقريبات اسراتها . واذا شئت ان  
تراها فعليك بذلك المخدع المنفرد حيث تجدها مع اختيها .

اسماعيل تيمور باشا  
الزوجة جركسية الاصل



---

( ١ ) لقد هدم المنزل الذي ولدت وشبت فيه عائشة كما هدم المنزل  
الذي سكنته بعد زواجها . وقام على آثار كل منهما ابنية جديدة  
(٢) « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور »



## الفصل الثالث

# النشأة والزواج





## نشأة الشاعرة

مع أختيها ؟ اذن بين فتيات ثلاث متقاربات سننا ،  
متماثلات حالا ، كيف لنا ان نهتدى الى ضالتنا ؟ لو عرفنا  
صورتها امرأة لاستدللنا بملامحها المتركة لتبينها الآن  
بين أختيها لاعبة لاهية - او هادئة رصينة كما كان وما  
زال كثيرون من الشرقيين يريدون لأبنائهم جاعلين حدائهم  
شيخوخة ، مكبلين منهم البداهة على نوع ما فيحرمونهم  
مرح الطفولة الهنيء وذكريات الفعلة ونعومة البال . الا  
ان الشخص الوحيد الذى فى وسعه ان يطلعنا على تفاصيل  
معيشتها ، أعنى شقيقها الجليل احمد تيمور باشا ( ١ )  
يفوته من حياتها قسط وافر . لانه ولد قبل وفاة والده  
بسنة ( ١٨٧١ ) يوم كانت عائشة فى الحادية والثلاثين ،  
تعيش زوجة واما فى منزلها بعيدا عن دار والدها . لذلك  
رغم كل ما نلقاه عند احمد باشا من الاستعداد لتلبية  
السائل ، فانك لتراه أحيانا يتوقف عن الجواب ريثما  
يراجع تذكاراته ، ثم يقول ، ببسمة الاسف : « والله  
ما أعرفش » .

بيد انى فزت منه بهذا الوصف الظريف فى ابهامه .

---

( ١ ) كان لعائشة أختان احدهما توفيت فى حياتها وقد رثتها فى « حلية  
الطراز » ، والاخرى منيرة هانم تزوجت من على باشا آصف وتوفيت بعد  
وفاة الشاعرة .

« كانت لا طويلة ولا قصيرة ، لا بيضاء ولا سمراء ،  
لا سميكة ولا نحيفة » . اما عطوفة ادريس راغب باشا  
الذى رآها فى حدائته فى زيارة والدته فطنت هانم حرم  
اسماعيل راغب باشا (١) فقد رد على استفهامى بقوله :  
« مش فى بالى تمام كانت ازاي ، لكن كانت حلوه والله » .  
كذلك بعد مرور اعوام ، وقد تقدمت عائشة فى السن ،  
رأتها حرم شعراوى باشا تزور الزوجة الثانية لوالدها  
محمد سلطان باشا (٢) . وقالت لى : ان كل ما تذكر منها  
انها « كانت ست كدا الاتوركا » . مفهوم انها لم تكن  
« الافرانكا » !

ولكن اظننا بلا دليل ولا علامة قد نعرفها بمجرد  
الاستسلام لهدى الفراسة . ان التى ترجح على  
اختيها بمثل ما رجحت عائشة لا بد ان تحوى ملامحها  
منذ الصغر شيئا يختلف عما يرى فى وجه عادى  
الصغار . فنحب ان نتصورها طفلة دمثة فى العاشرة من  
عمرها ، تنضح شفتاها المتوسطا الحجم بطلاوة العاطفة  
وشوق المحبة . شفتان تهمان بالافترار لتذوق المستطاب  
المستساغ من طعوم الحياة جاهلتين ما وراء ذلك من حنظل  
وغسلين . ونحب ان نتخيل فى العينين القاتمتين من  
معانى الشجن وغزارة العواطف ما يتفق مع معانى الوجوم  
واللذاذة فى الثغر . ونكاد نرى تينك الشفتين تختمان

---

( ١ ) تقلب راغب باشا فى المناصب وكان وزيرا غير مرة وانتهى بان  
كان رئيسا لمجلس النظار . ويظهر أن الاغا الحالى لحرم ادريس باشا كان  
عند التيمورية فى حياتها

( ٢ ) محمد سلطان باشا الرئيس الاول لاول مجلس نواب مصرى

بالخط اللطيف البارز بدقة كأنه حفر حفرا ، الذى يرى  
فى شفاه أهل الفن والذوق ، وفى شفاه بعض الشعراء .  
كأنه يشير الى الاوزان التى سيضبط توقيعها العواطف  
المستفيضة الشاردة ، ويقتنص الزفرات الملهبة المتدافعة  
ليسبكها فى ما يظل منضدا على القرطاس نظيما ، ويظل  
على شفاه الطروب من الناس شاديا .



من اين جاءت هذه الصغيرة بميلها المبكر الى الكتب،  
وبوراثتها الشعرية والبيانية ، وميل جدها جلى لحمل  
سلاح الجندى دون سلاح الكاتب ؟ امر لا تتيسر  
معرفته ، الا للذى اطلع على ما يجهله كبير الاسرة الحالى،  
احمد تيمور باشا ، من تاريخ التيموريين قبل الهجرة  
الى مصر . بيد ان المعروف عن والدها انه كان راغبا فى  
العلم والادب . فالف كتابا ضمنه خلاصة مطالعته محاكيا  
به « سفينة الراغب ( ١ ) ووضع لأسرته تاريخا باللغة  
التركية كان فى نية السيدة عائشة ان تنقله الى العربية  
( نروى هذا عن احمد باشا وقد أخبرته به شقيقته  
الشاعرة فيما بعد ) . وجمع مكتبة نفيسة تشئت بعد  
وفاته كما تبعثرت اصول الكتابين اللذين لم يطبعا . على  
ان لذلك الفاضل اجمل اثر يحمده فى تعليم ابنته والعناية  
بتثقيفها فى عصر ضنين على النساء بالتعليم والتثقيف .  
وان عائشة لتذكره دوما بالشكر والتحنان ، وترثيه

---

( ١ ) مؤلف هذا الكتاب هو محمد راغب باشا تولى الصدارة العظمى  
فى الاستانة وعاش فى القرن الثامن عشر

بعد وفاته بقصيدة ملأى بالعبرات :  
أبتاه ، قد حش الفراق حشاشتى  
هل يرتضى القلب الشفوق جفائى ؟  
يا من بحسن رضاه فوز بنوتى  
وعزير عيشته تمام رخائى  
ان ضاق بى ذرعى الى من اشتكى  
من بعدك فقدك كافلا برضائى ؟ (١)  
ليس هذا من مألوف الشكوى والثناء . بل هو كان لها  
على الدوام نصيرا منذ الصغر فى جهادها ضد والدتها  
التي كانت تحثها على تعاطى اشغال الابرّة .  
ولا يفوتنا اننا الآن — فى هذه النقطة من بحثنا — ما زلنا  
ايام كان ابناء العظماء ، حتى الملوك انفسهم ، يتزوجون من  
معتوقاتهم . ولطالما استهجن كتاب الفرنجة هذه العادة  
ذاهبين الى ان دماء العبيد تجرى فى عروق اكثريّة  
الشعوب الشرقية . وما هى منهم الا نظرة سطحية اذ ليس  
اولئك الجوار دوما من اصل وضيع . فمنهن الكريمات  
اسيرات الحروب . وقد قذفت حرب المورة ، مثلا ، الى  
مصر بكمية وافرة من بنات اليونان . ومنهن الشريفات  
المخطوفات . ومنهن الشركسيات يبيعهن الاهل مدفوعين  
بحب الرفعة والتقدم لاولادهم الذين اذا عاشوا فى جبالهم  
كان حظهم محدودا . أما اذا انتقلوا الى بلاد اخرى عن  
هذه الطريق فلهم ان يتعللوا باكبر الآمال ويرتقوا اعلى  
المراتب .

---

( ١ ) « حيلة الطراز »

لست مبررة عمل الامل ، انما انا شارحة احساسهم  
نعم ان كثيرين من اولئك الاولاد يحلون بيوتا صغيرة  
يعملون فيها للخدمة فيجىء الاعتاق متأخرا ، ويكون  
الزواج فقيرا والجهاز ضئيلا . ولكن الشرع الاسلامى  
شديد الرقق بالرقيق ، جم العناية بحاله . ثم قد يسعد  
الصبى فيصير « مملوكا » ألمعيا ، وتصير البنت « هانما »  
غنية . ولهم ان يحلموا حتى بالعروش .

هذا من جانب الامل . اما الأزواج فلم يكونوا يومئذ  
ليطلبوا فى المرأة سوى خصائص الصحة والجمال الجسدى  
وجودة البنية . فتزيد او تنقص قيمة الجارية بقدر ما  
تحوز من تلك الخصائص . فيخرجونها على اعمال معروفة  
كتدبير المنزل ، واشغال الابرّة ، وفنون الرقص والعزف  
والغناء أحيانا . ويربونها على عادات الكبراء وعلى طريقة  
من الطاعة تتلاقى فيها الانفة والاذعان .

وهناك سبب اجتماعى آخر فى مصلحة الجارية ، وهو  
كونها بكليتها لعائلتها الجديدة . يقول الظرفاء ان آدم كان  
أسعد الأزواج لان حواء كانت « مقطوعة » فظل حياته فى  
نجوة من صولات أهلها وجولات أنسبائها . والحق  
يقال من عيوب المجتمع الشرقى ذلك التطاول المرفى  
الذى يسمونه « وحدة حال » أو « يا سلام ! الناس  
بالناس ! » . وبه يستبيح بعض الأقارب والأنسباء ما  
كان يجب ان يحجموا ويقفوا دونه . مسلم أن البر  
بالأقارب حسن ومحمود ، ولكن على شريطة ألا يكون ذلك  
باعثا على أضرار العائلة وتنغيصها . والا يكون معناه انتهاك



حرمة البيت من ذلك الجيش الجرار الذى تسحبه بعض النساء الشرقيات كأنه الهدية الواحدة من هدايا العرس المنقلبة ضربة لازب . جيش يصير همه ابتداع الاكاذيب وتلفيق الروايات ، لا سيما اذا كثر الاختلاط وظهرت أسباب المنافسة والحسد . وانما باعتدال المعاشرة والاحتفاظ بعادات كل عائلة ، والسهر على استقلالها الداخلى وراحتها وأسرارها يتحقق التفاهم بين الاقارب وتنمو المودة . اما التطاول والتهجم فمؤديان الى القطيعة حتما وقد بدأ الشرقيون يفهمون ان البنت عند زواجها ثمرة نضجت فسقطت عن شجرتها . فأضحى اول واجباتها محصورا فى العائلة الجديدة التى تنشئها ، كما تنقيد البذرة بالثمرة الجديدة التى كونتها تنفيذا لناموس الخليفة . ولقد كان هذا الاستقلال العائلى ، وتقديس حدود البيت والتفرغ للاعتناء به ، والقيام بما يعود عليه بالرفاهية والهناء — من اكبر عوامل تقدم الامة الانجليزية . كما ان تقيضه فى كثير من الأسر الشرقية من أهم عوامل التقهقر . اذ كيف يتقدم وينجح من كان فى حياته البيتية شقيا !

هذا ما كان ينجو منه زوج المعتوقة . وقد ذكرت « نية سليمة » قول سيدة مصرية معتوقة انها ستبتاع فى الاستانة زوجة لولدها لان « بنات باشواتنا كثيرات الدلال . أريد لابنى زوجة بلا حم ولا حماة لأضمن سعادته » ! (١) يدرك القارئ والحالة هذه ، ان والدة عائشة لم تكن

---

(١) كتاب نية سليمة سالف الذكر

تفهم تشبث ابنتها بالكتب ، ويدرك انها كانت تجدها  
شاذة فتسأل الله عليها صبورا ولها معونة !



غير ان الاب الحصيف قريب يسمع ويتبصر . فتقول  
لنا زينب فواز في كتابها « الدر المنثور » ان الباشا عندما  
راى الجدل متتابعاً بين زوجته وابنته تفرس في هذه  
النجابة وقال لوالدتها « دعيها فان ميلها الى القراءة اقرب » .  
واحضر لها اثنين من الاساتذة وظل يعنى بها فما تمكنت  
من معرفة الا يسر لها الاخذ باخرى . وتشهد لنا عائشة  
بفطانة والدها وعطفه في مقدمة كتابها « نتائج الاحوال »  
حيث تقول والدتها اذ تراها عاكفة على الكتاب والقرطاس  
كانت تأتى :

« وتعنفنى بالتكدير والتهديد فلم ازد الا نفورا ، وعن  
صناعة التطريز قصورا . فبادر والدى تغمد الله بالفقران  
ثراه وجعل غرف الفردوس مأواه ، وقال لها : « دعى هذه  
الطفيلة للقرطاس والقلم ، ودونك شقيقتها فادبها بما شئت  
من الحكم » . ثم اخذنى بيدي وخرج بى الى محفل الكتاب  
ورتب لى استاذين احدهما لتعليم اللغة الفارسية والثانى  
لتلقين العلوم العربية . وصار يسمع ما اتلقاه من الدروس  
كل ليلة بنفسه . . . »

وهى تتبسط فى هذا الحديث فى مقدمة ديوانها التركى  
والفارسى ( ١ ) بكلام مشوق لا سيما انه اهم ما لدينا

---

( ١ ) انى مدينة بترجمة هذه المقدمة الطويلة الشيقة لحضرة الكاتب  
المعروف محب الدين أفندى الخطيب المحرر بجريدة الاهرام وصاحب  
المكتبة السلفية . فقد عنى بنقلها رغم أعماله الكثيرة خدمة للادب

لمسايرتها في نشأتها . فتكرر القول ان والدتها كانت  
تحثها على تعلم التطريز ورأيها « ان هذا المنسج هو اداة  
النساء واستاذ المعارف لبنات حواء » . اما عائشة  
فلا تراه الا « كالهم العنيف » . فتتابع :

« وبالرغم مما كان متأصلا في نفسى من الميل الى تحصيل  
المعارف من جهة والحصول على رضى والدتى من جهة  
اخرى، فان نفسى ما برحت نافرة من المشاغل النسوية » .  
« وكان من دأبى ان اخرج دائما الى قاعة منزلنا (السلامك)  
فأمر بمن يوجد هناك من الكتاب لاصفى الى نغماتهم المطربة .  
ولكن امى - اقرها الله في رياض الفراديس - كانت تتأذى  
من عملى هذا فتقابلنى عليه بالتعنيف والتهديد والانذار  
والوعيد . وتجنح احيانا الى الوعود اللطيفة والترغيب  
بالحلى والحلل الطريفة . اما ابى رحمة الله فكان يخاطبها  
بمعنى قول الشاعر التركي :

« ان القلب لا يهتدى بالقوة الى الطريق المطلوب

فلا تجعل النفس معذبة في يد اقتدارك »

« فاحذرى من ان تكسرى قلب هذه الصغيرة وان تشللى  
بالعنف طهره وما دامت ابنتنا ميالة بطبعها الى المحابر  
والاوراق فلا تقفى في سبيل ميلها ورغبتها . وتعالى  
نتقاسم بنتينا : فخذى « عفت » واعطينى « عصمت » .  
واذا كانت لى من عصمت كاتبة وشاعرة فسيكون ذلك  
مجلبة الرحمة لى بعد مماتى

« ثم وجه ابى خطابه الى قائلا : - تعالى الى يا عصمت .  
ومنذ غد سأتيك بأستاذين يعلمانك التركية والفارسية

والفقه ونحو اللغة العربية . فاجتهدى فى دروسك ، واتبعى  
ما ارشذك اليه ، واحذرى ان اقف موقف الخجل امام  
امك » . فوعدت ابى بامثال هده ، ووعدته على انى  
سأبدل جهدى لاكون موضع ثقته ومحقة امله « (١)

فى مناقشة هذين الابوين وتغلب الاب فى النهاية ، أمثلة  
لكثير من الوالدين فى هذا العصر . فالاهل يقر رأيهم منذ  
حدائة ابنائهم فى الغالب ، على السبيل التى سيسلكون .  
فيقولون سنجعل هذا طبيبا ، وذاك محاميا ، والآخر  
مهندسا ، وأخاه تاجرا الخ . ولو هم تفحصوا الميول  
والممكنات لربما وجدوا ان المحامى المزعوم لن يفلح فى غير  
الطب ، وان المهندس خلق للتجارة أو للصحافة وان  
الطبيب هيأته الطبيعة لبيع الاناث القديم فى المزاد العلنى .  
وهلم جرا . هذا عدا تعويد الولد لباسا وأساليب لا تتفق  
مع قدرته المالية ، وبث الاطماع الجنونية فيه حيث  
لا كفاءة ولا حذق يؤهلانه لتحقيق الغايات الكبيرة . كثير  
من شقاء العالم اليوم راجع لسوء تدبير الاهل . فيصرف  
الاولاد الأعوام فى تلمس السبيل مجهدين نفوسهم فى نيل  
ما ليس لهم ، معذبين الآخرين وكل قلق حائر فى صراع  
الانانيات لتركين الحظوظ وتنظيم المعيشة .

أما شاعرتنا فقد نعمت بأب يجمع بين الادراك والمقدرة .  
فسيرها فى الاتجاه الذى تطلب نازعة عن الابرّة التى تكرهه ،  
والمنسج الذى تقلى ، حتى انها لا تذكر تلك الاشغال  
النسائية الا بالاستنكاف والاشمئزاز .

---

( ١ ) « مقدمة الديوان التركى والفارسى »

هنا ملاحظة صغيرة . لان هذا القول عن عائشة سيزيد في تعميم الخطأ الشائع وهو ان الفتاة اذا هى أحبت الدرس والعلم ، واذا هى برعت في معرفة أو فن ، رغبت عن اشغال المرأة وترجلت . وأنا اقول - وانى لاعلم ماذا اقول - ان هذا الا مذهب طائش غيبين . انى اعرف فتيات ونساء ينهضن من المسرات الادبية والفنية ، بل ومن أعرق وأعوص النظريات الفلسفية ، الى اشغال الابدرة والتفصيل ، بل الى ما دوتها من رفو ورتق ، وتدبير المنزل ومزاولة الطبخ . فيجدن في كل ذلك راحة وسلوى . ويدخلن في تلك الاعمال الوضيعة شيئاً من التفنن محولات ما فيها من خشونة الى ضرب من الكياسة .

كذلك رأى طائش وغيبين ذاك القائل ان الاطلاع والعلم « يرجلها » . انها لتتضاعف بالعلم انثويتها . ومن السخافة أن ينعى على المرأة المتعلمة التأنق والزينة واللفف . حتى ان صورة المرأة « المتعلمة » لتكاد تستحضر لمخيلة الناس عجوزاً دمية متصلة شرسة . ولماذا ؟ اترى الرغبة في تنوير الازهان والتوق الى حياة داخلية سامية ، يعنى الزهد فى الدنيا ، والانقطاع عن العالم ، والانفراد للدرس والتجوير شأن الرهبان فى الاديان ؟

ثم أليس من الغريب ان الرجل اذا هو برز فى الشعر او الفن او الفلسفة ، تأثت بعض الشئ (١) ، بمعنى انه يدق فكره

---

(١) - الاحساس الفنى لا يدل على التأثت ، لان الانوثة وظيفه عضوية . والملكة الفنية تنشأ عن سمو الوجدان . وهى ليست خاصة بالاناث ، بل هى أغلب ما تكون فى الرجال ( كتاب الهلال )

وتصقل عواطفه ؟ فكيف تتحور العوامل التى يتأنت بها  
الرجل فتكون عند المرأة مدعاة للترجل ؟

لا انكر وجود المترجلات بين المتعلمات . والسبب انهن  
بطبيعتهن كذلك . وقد تجد المترجلات بين الجاهلات  
الغبيات ، كما تجد بينهن من لا يعنىها امر بيتها ولا المام  
لها بتطريز او بتفصيل او بتنظيم . شغلها الشاغل الزينة  
والشرثرة والانتقال من زيارة الى زيارة . وقد تكون كذلك  
دون ترجل ، وبالعكس . فان لم تهتم عائشة بأشغال الابرة  
فلانها على غير استعداد طبيعى لها . ولو لم تحب الكتب  
والكتابة لما زاولت تلك الاشغال ، ولو زاولتها ما اتقنتها .  
وذلك لم يقلل من عدوبة انثويتها الخالصة .

وعلى كل فلنغبطها على الوصول الى غايتها . ولنصغ  
اليها نخبرنا باختصار كيف انها منذ السابعة من عمرها الى  
الثالثة عشرة صار دأبها التزام الانزواء ، « منكبة على  
دروسى اجتهد فيها فوق ما كان ينتظر أبى منى . غير ان  
أبى لم يكن يأذن لى بالخروج الى مجالس الرجال ، وتولى  
بنفسه تعليمى كتب البلاغة الفارسية مثل شاهنامه  
الفردوسى والمثنوى الشريف ، واختصنى من ساعتين من  
وقته فى كل ليلة أقرأفيهما عليه » (١)

هذا الاب الذى يعرف ان يكون استاذا وصديقا معا  
جدير بكل شكر وثناء .



أنت الشاعر ، انت الاديب، أنت الفنان ، أليس انك تذكر  
من أعوامك الاولى ظرفا خاصا ، أو مشهدا جميلا ، أو

(١) مقدمة الديوان التركى والفارسى



كلمة محمسة ، أو وجهها محبوبا أهاج بلاهلك ، ولفتك الى  
نفسك ، وكأنه وسع فيك افق نور وفتح في جنانك بركان  
نار ؟ أليس ان لك ساعة تفتق فيها من نبوغك البرعم  
الاول ؟

ولعائشة مثل تلك الساعة ! ما هو الباعث فيها على  
الشعر ؟ هو الوجه الذى تسفر له المرأة المحجوبة : وجه  
الطبيعة . حنت الطبيعة ذات ليلة على الشاعرة الصغيرة  
فتولدت فى نفسها الفتية خوالج جديدة ورأت البدر منيرا  
والليل جميلا ، وكان لصفحة السماء روحا تحس وتناجى .  
دعها تلقى علينا حديث وحيها :

« فى خلال هذه المدة كنت انظر فى دواوين الشعراء  
وأعالج النظم بالاوزان السهلة . وفى احدى الليالى جاءتنى  
مرييتى بباقة ورد وضعتها فى مشربيتى . وكانت الليلة ليلة  
البدر . ففيما انا امتع ناظرى بذلك المنظر دعتنى امى اليها .  
فجعلت باقة الورد فى امانة البدر . ثم عدت من عند امى  
فوجدت الباقة مبددة فاحزننى ذلك كثيرا . . . ووضعت  
ناصيتى فى كفى واخذت افكر فجادت قريحتى ببيتين من  
الشعر الفارسي » ( ١ )

الا يحلو لك تيقظ العاطفة على هذا النمط ؟ أتبصر معنى  
تلك الطاقة النظرة فى نور القمر ، والبنية تستعطف البدر  
لاجل ما تحب ؟ ثم تعود فتري البدر غافلا ، وطاقة الورد  
مبددة ، وتوسلها وأملها هباء . . .

رمز يا عائشة ، رمز الى ما فى الحياة الممتدة امامك ! فلا  
ما هو موضوع الاعجاب والرجاء ليستجيب ، ولا ما هى

---

( ١ ) « مقدمة الديوان التركى والفارسي »

نضرة الازهار لتبقى . وانما الانسان هو الذى يثق ويبتهل  
ويخيب ويحزن . فيؤدى به ذلك الى تجربة مرة ، او عاطفة  
جريحة ، او اختبار قاس !

ذاك وحيها الاول ، وهو منظر ما زال غنى الوحي لقرائح  
الشعراء ، ومخيلات العاشقين ، بل لجميع القلوب  
الحساسة . ولكن لنصغى الى بقية الحديث :

« وعندئذ دخل على ابي فراى ما بى من الحزن وسألنى  
عن حالى ، فانشدته الشعر وانا فى خجل وحذر . وانما  
كنت كذلك لان ابي كان كلما رأى فى يدى ديوان شعر يقول لى -  
« انك اذا اكرت من مطالعة الشعر الغزلى فسيكون ذلك  
سبب زوال كل دروسك من ذاكرتك »

« أما الآن فانه لما سمع شعري أعاد كلامه الاول وزاد عليه  
قوله - « ان الشعر اذا لم يكن باللغات الثلاث . العربية ،  
والفارسية ، والتركية ، - لا تكون له حلاوة » . ثم قال لى :  
« اذا اتممت الكتب التى بدأت بها سأتيك بمعلمة تعلمك  
العروض . وانى اتوسم فيك السرعة فى تعلمه ما دامت  
عندك هذه الرغبة » . فاجبته بانى قد حصلت على قليل  
من معرفة النظم باللغات الثلاث . فطلب منى ان انظم قطعة  
من الشعر . فقبلت ذيله وانزويت فى غرفتى . ففتحت كتاب  
المثنوى الشريف مستمدة من روحانية ناظمه . وبدأت انظم  
على وزن شعر الرباعيات الذى مطلعته : عزم ديدار تودار  
دجان ما » ( ١ )

نظمت هذا الشعر باللغات الثلاث الفارسية والعربية

---

( ١ ) « مقدمة الديوان التركى والفارسى »

والتركية ، وانشدته والدها . فضمها اليه وقال :

« ان ما فيه من غلطات اللغة وسقطات القافية ستدركينه  
بنفسك فيما بعد . واذا بقينا احياء الى العام القادم فاني  
سأدع الكتب التي اقرئك اياها واجعلك تبدأين بقراءة متن  
( الكافية ) » . ولكن لم يحل العام القادم بعد طول الانتظار حتى  
تقيدت بقيد الزواج » ( ١ )

بهذه الكلمات القليلة ذات الروح الجديدة في قدمها ،  
تخبرنا عن نفسها الى حادث الزواج الذي لا تذكره الا بكلمة  
واحدة . ومن ثم تنتقل في تلك المقدمة الى الكلام عن ذاتها بعد  
مرور عشر سنوات على زواجها . اما أنا ، فعند هذه الكلمة  
الوحيدة التي تغير حياة الفتاة بكليتها ، اقف طويلا واتأمل .  
وكم كنت اود استطلاع ما شعرت به عندما ابلغت انه تم  
اختيار ذاك الذي سيكون زوجها . اي عواطف جاشت في  
نفس تلك الشاعرة الصغيرة ؟ اي حنان وخوف ؟ اي صباغة  
واجفال تناوبت على قلب ناظمة القصيدة التي روت لنا  
الآن حكايتها مع ابيها ، فجعلت هذه الابيات العربية بين  
الابيات الاخرى من تركية وفارسية :

يا شهى الذات يا حلو اللما  
ضاع عمري في عسى ولعلما  
ان عددت النوح منى طالما  
قد جرى دمعى بخدى عندما

ان سقى دمعى الشرى لست الملوّم  
مذ سقاني العبد مقدور الظلوم

---

( ١ ) « مقدمة الديوان التركي والفارسي »

ذقت حبا والهوى نار السموم  
فاطف زفرائى ، بخلاق السما

مت حرصا فيك ان قربتنى  
ودنا اجلى اذا ابعدتنى  
ان حرمت الأنس او آنستنى  
فعلى كل جوابى اينما

هذا ما قالت هـ فى الثالثة عشرة قبل ان تطلق لعواطفها  
العنان وقبل ان « يرخص لها رسميا » ان تتخذ لنشيدها  
موضوعا حيا . فـاى الاناشيد تغرد الآن فى القلب الصغير  
اذ ترقب « وجهه » من وراء النافذة وهو داخل ؟ واذ  
ينقلون اليها اخباره ؟ وان تتصوره وتفكر فيه اليوم وهو  
بعيد ؟ واذ تفكر فى الغد حين تكون معه ؟ ليتها دونت لنا  
يومياتها فى ذلك العهد اذن لتمتعنا بتأثرات ولذات بريئة  
شهية !

.. ولكن لقد اغفلت الكتب وأسلمت الكراريس للغبار  
والسكون ، ولهمت التلميذة المجتهدة بتهيئة الاثواب الجميلة  
الزاهية والحلى المتألقة الغالية . والايام تحددو الايام سراعا فى  
اتمام معدات العرس . ولقد اقبل اخيرا اليوم العظيم يوم تنفتح  
السما فوق المرأة مرسله اليها قضاء السعادة او قضاء  
الشقاء .

وهاهى ذى بطلتنا الآن ليست شاعرة بل هى عروس  
شعر فى بهجة أعوامها الاربعة عشر ، تنجلي على عرش الصبا  
والرواء والحب . الامل يزهو على شفيتها ، والتأثر يلهب  
خديها ، والرغد ييسم فى نظراتها ، ويخافون عليها عين  
السوء فى مهرجان الفرح فيذرون فوقها وحواليها حفنات  
الملح ، كما تذر فى القاعة حفنات النقود للبائسين .

ها هي ذي تسير في موكب العرس الى بيت عريسها  
يتقدمها ثلة من البوليس ، واخرى من الفرسان ، وحملة  
الشموع والازهار ، والموسيقى الوطنية الشجية بالحن  
النأى ونقر الطبول . تتبعها مركبتها المجللة بنفيس الاقمشة  
ووراءها خط طويل من مركبات المدعوات . ها هو ذا بيت  
الفرح تخفق حوله الاعلام المصرية الحمراء ، وتلمع بينها  
عديد المصابيح الملونة . . ها هم وصلوا ، ووقفت مركبتها  
. . وقد جاء الخاطب يستقبل عروسه ويقودها بيده الى  
مخدعها وسط جلبة المدعوات ، وتراكم الخدم والاغاوات،  
والاصوات والزغاريد الممزقة الهواء .

وبينما هي تبدل أثوابها وتخرج الى قاعة الفرح لتحضر  
دورا آخر من الرقص والفناء يذهب الزوج الفتى «بزفة»  
الى الجامع بين أصحابه ، لتأدية فريضة الصلاة . ولكن  
ها هو قد عاد ، وجاء يقابل عائشة التي تنزل عن درجات  
عرشها ( كوشا ) وتقف مرتعشة مسدولة الخمار ، في  
انتظار اتمام الطقس المألوف . . . الفتى يجثو للصلاة . ثم  
ينهض ويدنو من الفتاة فيرفع الحجاب وينظر في وجهها  
للمرة الاولى ، ويشبك على صدرها حلية ثمينة فتقبل  
يده شاكرة ويرد هو على هذه القبلة بقبلة على جبهتها .  
ويلقى بحفنة من النقود الى من بقى حولهما من النسوة  
فيختفين . ويصعد العروسان الى ( الكوشا ) فيجلسان  
في بهجة الفرح وسرور الاهل والاصدقاء وبعد هذه الليلة  
تستهل حياة جديدة .

وهنا نترك الشاعرة وشأنها تحيا قصيدة ليست هي  
نظما ولا نثرا .

## بعد الزواج

تزوجت عائشة فانتقلت بالزواج الى عالم جديد له ما يرافقه من حرية ومسؤولية ، وما يخالطه من مسرات وغموم ، ولقد كان يشوقنا ان نقف على وقع هذا الظرف الخطير في نفسها ، وان نستشف اللون الذي بدت لها الحياة به بعد ان اختلفت في بعض جوهرها عن حياتها في بيت ابيها .

ترى اكان لها من هذا الانتقال مستطاب الاثر أم مستنكف الخبر ؟ اكانت به محظوظة ام مغبونة ؟

حسن ان نعلم ، بفضل « الدر المنثور » ، انها « هنالك اقتصرت عن المطالعة وانشاد الاشعار والتفتت الى تدبير المنزل وما يلزم له خصوصا حينما رزقت بالاولاد والبنات » . ولكننا مضينا على تخمين ذلك وان لم نخبر به لانه امر طبيعي . امر طبيعي كذلك ان يسوقها كسواها عباب الحياة اليومية متشابهها للجميع بمادته ، وان تغاير حتما لكل امرئ بتغاير مزاجه وبتفاعل هذا المزاج والاحوال التي تعالجه ويعالجها . أما ما ولده هذا الانتقال في الشاعرة من خوالج ، أما نسيج شعورها في تلك الاعوام السحيقة فذاك ما يظل مغلقا علينا لولا لمحات نسترقها في ما كتبت ، ولولا القليل الذي ترضى ان تلقى به إلينا ، فتقول :



« وبعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الاولى من ثمرات فؤادى - وهى توحيدة نفحة نفسى وروح أنسى - قد بلغت التاسعة من عمرها فكنت أتمتع برؤيتها تقضى يومها من الصباح الى الظهر بين المحابر والاقلام ، وتستغل بقية يومها الى المساء بابرقتها فتنسج بها بدائع الصنائع فأدعو لها بالتوفيق شاعرة بحزنى على ما فرط منى يوم كنت فى سنها من النفرة فى مثل هذا العمل ولما بلغت ابنتى الثانية عشرة من عمرها عمدت الى خدمة امها وابيها فضلا عن مباشرتها ادارة المنزل ومن فيه من الخدم والاتباع . فتسنى لى ان أنصرف الى زوايا الراحة » ( ١ )

إذا نظرنا الى توحيدة بعينى أمها وجب ان نسلم بأنها فتاة غير عادية . وسيكون لها من محبة والديها نصيب فوق نصيب كل من اخوتها واخواتها ، وبسبب توحيدة هذه ستبكى عائشة كثيرا ، كثيرا .



كانت قبل الزواج قد تلقت عن مؤنس أفندى القرآن الشريف والفقه والخط ، ودرست على الاستاذ خليل رجائى علم الصرف واللغة الفارسية التى سبق فعلمنا أن والدها تولى متابعة تلقينها اياها قبيل زفافها ، مكرسا لابنته كل يوم ساعتين من وقته . ثم تلت أعوام جاءت فى مطلعها توحيدة التى شبت فطنة الذهن ، يقظة الفؤاد ، فحملت على منكبيها الفتيين تبعة الادارة المنزلية والتنظيم .

---

( ١ ) « مقدمة الديوان التركى والفارسى »

فانقلب يشاغل عائشة ذلك الشوق القديم ، وعاد اليها بقوة الحب الذي ساير عمرها في الحزن والفرح — حب الدرس والمطالعة :

« حينئذ خطر لى ان استأنف ما فاتنى فى صفرى من تعلم فن العروض فجئت بمعلمة » . . . « ولكن لم يمض على الشروع فى الدرس ستة اشهر حتى انتقلت المعلمة الى رحمة ربها . وكانت بنتى تلازم دروسنا فى تلك المدة فاستطاعت — بسبب حداثة سنها وتوقد ذهنها — ان تلم بفن العروض اكثر من المامى به » (١)

توحيدة مرة أخرى ! ترى لماذا تشغف الشاعرة بذكرها، والاشادة باسمها ، واظهار محاسنها ، الما تنطوى عليه من توقد وذكاء ؟ لأنها جاءت العالم وعائشة حديثة السن فكانت الام لابنتها — فيما كانت — أختا كبيرة ، وكانت البنت لوالدتها أختا صغيرة ؟ لأنها رفعت عنها عبء التدبير المنزلى وكانت ، فى الوقت نفسه ، أقرب اولادها الى تفهم ذوقها وميولها ؟ أم لاجتماع هذه الميزات فى توحيدة بعد كونها البكر وهى تلك الميزة الاولى التى ذاقت الشاعرة بها لذة الامومة للمرة الاولى ؟

يتعلق بعض الاهل — لا سيما الامهات — كل التعلق بأبكارهم . ولئن أردف قوم من المدعوين بعلماء النفس الذين لا تطمئن منهم الخواطر الا اذا أوجدوا لكل سبيل جبلا يصدمه — ان هذا التعلق يخف بعد أعوام محدودة يوم يفتح الولد على الشؤون عينا ترقب وتبرز من شخصيته

---

( ١ ) « مقدمة الديوان التركى والفارسى »

الخصائص المستقلة . وان جماعة من الامهات يداخل حبهن عندئذ بعض الكره والنكد لانهن يرين فى بناتهن المنافسات والمسابقات . هذا اذا كانت الام من دعيات التأنق وعاشقات اللألاء الاجتماعى فى الأندية والحفلات .

لئن قال بعض السادة العلماء ذلك فان قولهم ينطبق على فئة وتتملص منه أخرى . تتملص منه وتحلق فوقه فى جو المحبة والرحمة والدراية تلك الفئة الصالحة من الرجال والنساء المولودين ليكونوا آباء وامهات . لاننا هنا أيضا نجد المختارين الصميمين ، وعلى مقربة منهم يدب الدخلاء ويتحرش المتطفلون . والحالة الوالدية — كاية حالة طبيعية أو اجتماعية سواها — ان هى كيفة الافراد فهى لا تكيف منهم سوى فطرتهم بجبلتها ورغباتها وميولها . لذلك لا تبدو بأسنى مظاهرها وأبقاها الا فى الشخصيات المهيأة لها



وعائشة مهيأة لذلك على ما نرى من ولعها بتوحيدة — توحيدة الآلة القادرة التى تتحول بواسطتها رواكد العاطفة الوالدية عند الشاعرة تيارا دافقا . فهى تحب منها المواهب والحسنات وتخلق للعيوب الهزيلة تفسيراً لا يهتدى اليه ويترجمه بهذا اللطف ، الا من استنار بنور الجنان هالك مثالا لذلك :

الفتاة التى كانت تقوم بإدارة المنزل ورقابة وضيع أعماله الداخلية كانت — على ما يلوح — لا تقصر دون أتقان أعمال أخرى تقتضى بعض اللباقة ، كاستقبال الزائرات والاحتفاء بهن

فجاءت يوما بعض السيدات ( ويظهر ان الغرض من زيارتهن ان يخطبنها ، وهى تجهل ذلك ) فخفت توحيدة ترحب بهن ريثما تأتى والدتها ، وقالت ملاطفة بموجب الطقس المألوف « أوحشتونا » . الا انها كان بلسانها لشفة خفيفة قضت بأن تجيء أوحشتونا « أوحشتونا ! » وهنا دخلت السيدة عائشة فسمعت الكلمة التى حرفها العيب اللفظى ، فمضت تشرح ذلك العيب على هذه الصورة :

قال العوازل مذ قالت مؤانسة  
« أوحستنا » انها تجفو وذاك غلط  
لم يبدل الشين سينا لفظها غلطا  
بل لم يسع ثغرها الزاهى ثلاث نقط (١)

ومرت على الشاعرة فترة - تقول زينب فواز - فقدت خلالها والدها ( سنة ١٨٨٢ ) ثم زوجها بعد ثلاثة أعوام « وصارت حاكمة نفسها فأحضرت لها اثنتين لهما المام بالنحو والعروض أحدهما تدعى فاطمة الأزهرية والثانية ستيتة الطبلاوية وصارت تأخذ عليهما النحو والعروض حتى برعت وأتقنت بحوره وأحسننت الشعر وصارت تنشد القصائد المطولة والازجال المتنوعة . . . » (٢)

يجوز الاعتراض هنا بأن عائشة نظمت كثيرا قبل تعلم النحو والعروض على هاتين السيدتين . فقد طالعنا فى

---

( ١ ) روى لى هذه الحادثة الصغيرة توفيق بك اسكاروس الباحث الاديب نقلا عن فضيلة السيد البلاوى وكيل دار الكتب المصرية ونقيب الاشراف سابقا

(٢) « الدر المنثور » .

ديوانها مثلا قصائد الترحيب بميلاد أخيها ، وتأبين والدها،  
وغير ذلك ، وجميعه وقع قبل ان « تبرع في الشعر وتتقن  
بحوره » . ومن هنا نستنتج ان استفادتها من قليل  
الدروس السابقة كانت غير هزيلة

ولكن ، اليس ان ضوابط النظم تتعلق بالموسيقى  
السمعية اكثر منها بالقواعد المدونة ؟ والواقع ان هذه  
القواعد لم تكن الا تقريراً محسوساً لتلك المطالب الدقيقة  
التي تجهر بها حاسة السمع ، فتلبى أفراد الطائفة  
الواحدة كل من جانبه على غير تعاهد من الآخرين . حتى  
اذا أجمع كثيرون على امر واحد عرفوا أنه حاجة أولية  
فعرفوه بياناً ، ودونوه قاعدة ، ترجع الى حكمها الاجيال  
من هذه الطائفة . لا لأنها « حكم » بل لان هذا الحكم  
يترجم عن الحاجة النفسية التي نشدتها حواس الشعراء  
في الماضي وستنشدها على الدوام . لذلك نرى ان شعراء  
جميع البلدان في جميع العصور أوجدوا في مختلف اللغات  
— غير متحالفين فيما بينهم وجاهلين بعضهم بعضاً —  
بحوراً للشعر وأوزاناً وضوابط موسيقية ذات وقع لفظي  
في النفس ( حتى لمن لا يفهم اللغة ) بينا المعنى الشعري  
يحبو النفس بوقعه الخاص . وعوارض المغالاة والاغراق  
والتمسك بصيغة النظم دون المبالاة بالجوهر ، طوارئء  
تداهم اللغات تبعاً لحالات الاقوام ووفقاً لنواميس الاجتماع،  
الا انها لا تنقص من الشعر دعامته الموسيقية المؤثرة

كذلك قد يعترض بعض أهل الذوق اعتراضاً خافئاً على  
ان معلمة العروض تدعى . . الطبلاوية ، قائلين انه على التي

تعلم الاوزان الشعرية ان تنتحل لها اسما يتفق مع عملها ويوحيه للسامع . ولكن ، أليس للطبل من موسيقى ؟ وان لم يكن للطبل شدة اللحن والنغم ، أليس ان له موسيقى الفصل والوقع والتعريف ؟ والسيدة الطبلاوية لم تكن تلقن الشعر ، وهو ليس بما يتلقن ، بل تعلم كيفية التمييز بين اتزانه وانكساره . فاسمها بهذا متضمن لعلمها وعملها .

وسواء رضى اهل الذوق لهذا الشرح ام لم يرضوا فليذكروا انه امر فائق ان يوجد بين السيدات الشرقيات من استطعن في ذلك العهد المظلم للنساء ان يدرسن هذه الدروس ، في حين ان من استطعنه اليوم نادرات بيننا وقليلات عند الشعوب الاخرى . اذكر ان كاتبا فرنسويا كبيرا ( اظن الفرد كابس Alfred Capus ) ندد قبيل الحرب الاولى في مجلة « فمينا » بالسيدات الفرنساويات لأنهن ، بعد احصاء فئة من المتعلمات بينهن ، ظهر ان العارفات بقواعد النظم وأصول البحور الشعرية ، يكدن لا يبلغن الخمس في المائة . فما اعظم فضل تينك السيدتين الازهرية والاخرى ، ولو كانت الطبلاوية ، بما كانتا تعرفان ، وبأنهما اضافتا الى مصباح عائشة زيتا يعين على تغذية نوره !

بيد ان تمتع الشاعرة بالابنة المحبوبة لن يطول . قدر على توحيدده ان تموت باكرا في ربيع الصبا . علة مجهولة ترقبها وتنفت في جسدها وهي تكتم امرها رفقا بالتى تحبها . وها هي تسرد لنا طرفا من حديثها المحزن :

« قبل ان تنطرح على فراش المرض فاجأتها في احد



الاورقات وهى فى رداء نومها وبين اناملها قلم تكتب به القطعة  
العربية الآتية :

اسمع مقالى يا اريب	وقصتى شرح مريب
قد كنت فى دوح الصبى	اهتز كالغصن الرطيب
اصبحت حالى عبرة	يبكى على مثلى الغريب
كلا ، ولا لى منهل	اروى به الا النحيب
قالدمع منى ساجم	والرمس اضحى لى قريب
يا ربى عجل رحلتى	واغفر ذنوبى بالحبيب

« فلما رأتنى مقبلة عليها دست رقعة الشعر تحت  
وسادتها بسرعة ولكنى بادرت فى الحال لاستخرجها  
فاختطفتها منى ، ثم خاطبتنى قائلة : « لا تعبأى يا  
امى المشفقة بمثل هذه الثرثرة » . ثم قالت لجاريتها  
« خذى هذه الورقة فأحرقىها » فلحقت بالجارية واخذت  
الورقة منها وألححت عليها بالسؤال فاجابتنى « ان سيدتى  
تتناول الطعام معك اذعانا لرأفة امومتك ، ولكن الطعام لا  
يبقى بعد ذلك لحظة فى جوفها وهى تذهب كل ليلة الى  
سرير نومها تطميننا لقلبك غيرانها لا يغمض لها جفن » . ( ١ )  
ان نحن وجدنا هنا دليلا جديدا على لطافة توحيدة  
وحرصها على راحة والدتها ، فلا يسعنا الا التعجب كيف  
ان الام الشديدة الحب لم تلمح على وجه ابنتها امارات  
المرض . نتعجب - لولا الاستدراك بأن التى ترى ان ثغر  
توحيدة الزاهى لا يسع ثلاث نقط فيقلب الشين سيناً ؛

قد تعثر بسرعة على عذر شعري يكتفى به قلبها لكل تغير  
وكل شحوب

أما وقد ثبت ان الفتاة مريضة حتى لترثى نفسها ،  
فهاتوا الاطباء ، وهاتوا العلاجات ، وبالفؤا في الاعتناء  
والمداواة ! الا ان المقدور نافذ لا محالة . والمريضة تعلن  
ذلك وتلقى على والدتها كلمات التعزية والتشجيع . انها  
أقبلت على عالم السر والرغبة فاستمدت منه الحكمة التي  
تهبط على كل من حاذاه . واستلهمت الغيب ارشادا  
للمتخلفين فقامت ، وهي الصغيرة وهم الكبار ، تعظمهم  
بسطوة الراحل وحقه على النصيح والتوديع الهادي :

« عبثا تدفعك الشفقة يا اماء الى معالجة امراضى فانه  
قد آن الاوان . ولا مناص من تلبية نداء المنادى » كل من  
عليها فان « واني اضرع الى الله ان يلهمك صبر ايوب وان  
يمنحنى نعمة رضاك فيكون ذلك سبب الرحمة والتجاوز  
عن سيئاتى وان يصون شقيقتى واخوتى »

« ثم ضمتنى الى صدرها فاعتنقنا . وبتنا ليلتنا الى  
الصباح في بكاء وانتحاب ونواح » (١)

قضت توحيدة ، فاقامت لها الام مناحة دامت سبعة  
اعوام متوالية ، فأضعف البكاء نظرها وأصابها الرمد .  
« وهنالك كثرت لواحيها وعواذلها من اولادها وصويحباتها » .  
« واخيرا سمعت قول الناصحين وقللت شيئا فشيئا من  
البكاء والنوح حتى شفاها الله من مرض العيون » (٢) .

---

( ١ ) مقدمة الديوان التركى والفارسى

( ٢ ) الدر المنثور

وهذا خبر ذلك الشفاء من قلمها :

« أصبح جسمى الضعيف كأنه فاقد الحياة لكثرة اتعابى  
واوصابى . ثم انعم الله على بالشفاء واشرقت ظلمات  
كآبتى بنور وجود ابنى محمود فكان فرحة بيت الحزن » (١)  
يخيل ان هذا الفتى محمود شب على شىء من ميول  
توحيدية ، وكأنه قد صمم على ان يقوم ببعض ما كانت تقوم  
به اخته الكبرى ليفوز بتعزية والدته ويربح محبتها  
الخاصة . ويظهر انه نجح . لانه هو « فرحة بيت  
الحزن » الذى شرع ينصح ويؤاسى ويذكر الام الحزينة  
بالآية الكريمة : « وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة  
قالوا انا لله وانا اليه راجعون » . وهو الذى طلب  
اشعارها العربية ليجمعها ، واشعارها التركية لطبعها  
فتكون « أثرا من آثار براعتك وفصاحتك » (٢) فقالت :  
« فى استطاعتى ان انظم الآن شيئا من الشعر شكرا لله  
تعالى على ما وهبنى من النعم اما اشعارى الماضية فكنت  
قد احرقتها كلها ، ولا اظن ان فى مكتبتى الا الشىء اليسير  
منها بالعربية والتركية . واما اشعارى الفارسية فانها لما  
كانت فى محفظة فقيدتى فقد احرقتها بمحفظتها كما احترق  
كبدي

« ان امك يا بنى لم تبق عندها الآن رغبة فى قراءة شىء  
من كتب الادب » « وسأنصرف الى الانكباب على تفسير  
القرآن ومطالعة الحديث النبوى وانى وهبتك ما عندى من

---

(١) و (٢) مقدمة الديوان التركى والفارسى

الكتب والاوراق فاصنع بها ما شئت » واذا » رايت فيها  
جدارة بالطبع فاطبعها « (١)

وكان ميل محمود شديدا - وكل ابن لام ذكوة يدرك  
ذلك - الى اظهار فضل والدته بصورة عامة . فنشر الكتب  
وكان له بذلك علينا حق الامتنان



في عنوان هذا الفصل « بعد الزواج » شبه وعد بشرح  
احوال غير معروفة وتبيين دقائق غامضة . وها انا لم آت  
الا ببعض الخطوط الكبرى التى استطعت تناولها . بيد ان  
الشرح لا ينتهى بانتهاء هذه الصحيفة . وعندما ننظر في  
شعر عائشة ونثرها وآرائها نظل مماشين تسلسل الايام  
والاعوام في حياتها لان كل ما لدينا منه دونته الا القليل بعد  
الزواج

يخيل ان آجال الافراد عموما تخضع لمقدرين اكبرين  
اثنين : أحدهما مداومة السير واستمرار التتابع ضمن  
حدود طبيعية وفي دائرة قوانين محتومة . والمقدر الآخر  
هو ان يعمل المرء طول حياته - مع بعض التغير في أنواع  
العمل بمقتضى الأطوار المختلفة - باختيار مسير - ان صح  
الجمع بين هذين النقيضين . وكأن العمل ينجز هو  
الآخر ضمن حدود ضربت له وفي دائرة قوانين لا يخرقها  
الا مستهترا مفسدا على نفسه امكان المعيشة

جداول جداول تجرى اعمار الافراد نحو ما وراء الموت

مما لا يجد ولا يدرك . جداول يسيطر عليها ذانك المقدران  
الشاملان في المرض والعافية ، في الفرح والترح ، في الامل  
والقنوط ، في الرغبة والاشتياق ، في المحبة والكراهة .  
والاصوات المختلفة المتصاعدة بتأثير هذه العوامل تكون  
شدو الجداول البشرية - ذلك الشدو المطرب المشجى .  
وهذا الجدول من عمر عائشة هو الذى سنسمعه شاديا في  
ما يلى بابهام كل خير ، ولذة كل قديم ، وتبشير كل رائد .



## الفصل الرابع

# بيئة الشاعرة





## بيئتها الاجتماعية

ترى هل الحاضر الا خلاصة ما أنمته الحياة واستهلكته من المطالب والجهود ؟ وما هي البيئة ان لم تكن تلك «الخلاصة» منظمة بيد الانسان وبمشورته أو منتظمة بحكم الاحوال والاسترسال ؟ وهل اليوم الا الماضى لغد ، وهل يكون الغد الا ماضيا لبعد غد ؟

ان كل صباح وكل مساء يأتيان بمجهودهما وخبرتهما ليضيفاهما الى ذخيرة الماضى الفسيح ، وكل خيط من خيوط الزمان ينسج نسيجه فى رحاب ما يمر ويتجمع ويبقى . وعندما ننتقل من بيئة الى بيئة ، ومن مكان الى مكان ، ومن آن الى آن ، لن نجد أمامنا الا صورا مختلفة من صور الماضى الحى فى كل حاضر وفى كل مستقبل

فاذا ما ولد الطفل تلقته دائرة من دوائر الماضى التى تدعى « البيئة » ، فوجد فيها بداهة ما يقوم بحاجته لأنه هو كذلك صورة أخرى من تجمع الماضى . فلا غرو أن يقوم كل نوع بنوعه . ولا غرو أن تحتشد أسرار الحياة وتوجز فى البيئة التى هى صورة مصغرة من العالم . ولا غرو أن تكون ممثلة للعالم وللحياة فى أغداق نعمها ومواهبها بلا سبب على بعض أسراها ، وتكون لآخرين أقسى مثال للجور والتعسف والحرمان

وليست البيئة من خصائص الانسان . بل للجماة ،  
والحيوان ، والنبات بيئتها الموافقة لنموها ، الملائمة لطبيعتها .  
الا أن الانسان قد يكون في بيئته الحسية يقوم بكل فرائض  
مرتبته الاجتماعية ومطالبها ويعد فيها من السعداء أو من  
البؤساء ، ويظل في داخله شاعرا بشعور غير هذا الذي  
يحسبه الناس عليه ، ويرتبونه بموجبه . قد يكون جائعا  
وهو يقيم الولائم ، سائرا في القفار وهو يتخطف في الحدائق ،  
مستعطيا متسول الفكر والعاطفة وهو كثير الفضل والمنح .  
وعلى نقيض ذلك قد يشعر بأجنحة الحرية تصطفق في نفسه  
وهو مكبل بالقيود والأصفاد . وقد يلمس مكنن مقدرته  
وهو في أدنى دركات العجز . وقد يتضح في وجدانه أعلى  
نهج للمعرفة والحكمة وهو أمد جاهل لا يدري ، بموجب  
تعريف البشر ، الفرق بين اللغة والفن ولا ماذا يميز بين  
الموسيقى والكيمياء

البيئة الاجتماعية هي دائرة الانسان الاجتماعي . الا  
انها لا يأبه لها الانسان الخفي في الانسان ، الذي كثيرا  
ما يحتاج الى بيئة غير هذه ، ويختار أقاربه وعشراءه وأحبابه  
مختلفين تمام الاختلاف عن الذين تجعلهم البيئة والحياة  
أقاربه وعشراءه وأحبابه . وفي هذه البيئة المعنوية صورة  
أخرى من الماضي الباقي . ولكم أتمت الحياة نفسها بحصر  
هذه المناقضات في شخص واحد ! ولكم خلق الماضي لنفسه  
مستقبلا جميلا من لهف الحرمان ، وزفرات الاسى ، وتجمد  
الدماء التي لا تسيل !



وعائشة ابنة ذلك السرى الوجيه والموظف الكبير الذي،

بعد تقلب المناصب أيام عباس الاول وسعيد واسماعيل ،  
انتهى بأن يكون رئيسا للديوان الخديوى - عائشة لم تفارق  
مرتبتها الاجتماعية بزواجها من محمد بك توفيق نجل محمد  
بك الاسلامبولى الذى كان حاكما فى السودان . ظلت فى  
تلك المرتبة تتمتع بما هيأت لها بيئتها من رغد حسى ،  
وتعاشر مشيقاتها نساء العظماء والكبراء . ولقد ذكرت عرضا  
فى أواخر كتابها « نتائج الاحوال » شيئا عن اختلاطها  
بالبلاط ، وذلك لشرح كلمة « واى واى واى غوث وأنا اى  
شيدرتوانا ، التى تقولها الاعاجم حين ما ترمى بهول فجأة .  
قالت :

« . . . كانت تدعونى ربة المعالى وكنز اللالىء والدة صاحب  
السمو اسماعيل باشا الخديو السابق تغمدھا الله برحمته  
ومنحھا فسيح جناته - بالقصر العالى للترجمة عند حضور  
أقارب ملوك العجم . فكنت أسمع هاته اللفظة من أفواههن .  
وهى كلمة تقال عند مفاجأتهن بشيء ما . وكنت أقيم معهن  
على قدر أقامتهن وأتسامر معهن وأسستفسر عن عوائلهن  
وأخلاقهن »

فى هذه الاوساط تجد ما ألفته من كياسة وتهيب ، وما  
أحسنته من آداب المحادثة والمجاملة واللفظ . على أن أولئك  
السيدات لا يعنين بغير الشؤون المعتادة فى العائلة والاجتماع  
وما أفعمت به من مسرات وأحزان . أما عائشة فشأنها شأن  
العاشق الذى تبدو له جميع محافل الانس والطرب مقفورة  
لتغيب الحبيب عنها .

فى تلك المرتبة الرفيعة فخامة الصروح ، وضخامة الالقاب ،

وأبهة المظاهر ، ولكنها فيها يعوزها القوت ، ويعوزها السرور ، وتعوزها الحرية . انها تتوق الى الاختلاط بالذين يعرفون ماتعرف ، ويفكرون كما تفكر ، ويحبون ماتحب . فى الخارج حركة التطور تجرى مجراها الطبيعى ، وان وثبت حيناً ، وتريثت حيناً . وفى الافكار غليان ، وفى الحماسة فتوة ، وفى القلوب أشواق . ولا تخلو المدينة من دوائر علمية يتحاضر فيها أهل الفضل على طريقة العصر، ويتناقش فيها الأدباء كأنهم فى وفاقهم وفى اختلافهم أعضاء الاسرة الواحدة . ولكن عائشة المعنوية ان هى تجاوزت نساء عصرها بالمعرفة والفهم ، وسبقتهن باقتحام عواطفها وتقديم مطالبها ، فان عائشة الاجتماعية تظل مخدرة محجوبة

صدمتها الحياة للمرة الاولى فى النضال مع والدتها بين الكتاب والابرة . فأيدها الوالد الحصيף وسيرها الى ماتريد . وجرت خطوات فى فرجة الاعوام فاذا بصدمة أشد وأصلب، صدمة العادة والتقليد . هذه لن يحميها منها الوالد القادر ولن تخرج عليها نفسها القلقة . اخبرنى كيف تشور على جماعتها امرأة هى ابنة رجل معروف وأم أولاد محبوبين ، وليس بين جماعتها صوت ينكر تلك العادة ويدعو الى تغيير ذلك التقليد ؟ يومئذ كان قاسم حدثاً ، ولعله كان من دعاة الحجاب . ولعلها هى كذلك لم تفكر فى وجوب السفور . بل عمدت الى تلك العلامة الاخرى من علامات النبوغ ورضيت بها : الاحتمال حيث لا منفذ غيره

امتثلت واحتملت . ولكن حتى للاحتمال والامتثال ساعات لامندوحة للمرء فيها عن أن ينفس كربتته ، ويندب حسرته،

ويرسل ما هو أشبه ببثة السجين المظلوم . فتمالت انها  
دعتها :

« الرأفة بكل مغبون لقي ما لقيت ، ودهى بما به دهيت ،  
الى أن أبدع له أحدىثة تسليه عن أشجانه عند تراحم الافكار ،  
وتلهيه عن أحزانه فى غربة الوحدة التى هى أشد من غربة  
الديار . . . » (١)

هذه الكلمة تكفى لنشعر مع عائشة بوحدها المضاعفة .  
وهذه الكلمة وهى لوحة تصويرية تامة ، تدهش عند امرأة  
سبقتنا بثلاثة أرباع القرن . وغريب ان تهتدى يومئذ الى  
حقيقة تلك « الوحدة » وان تعبر عنها - وهى ابنه عصر  
التطوير والتبسط - بهذا الایجاز البليغ

وكأنها مرة أخرى تجد بعض الراحة فى شرح المها بشكل  
الاعتذار المجمل بالسجع والتورية :

« . . . لم يمكن لى دخول محافل العلماء المتفقيين » . . .  
« فكم التهب صدرى بنار شوق الى محافلهم اليوانع ، وأدر  
جفنى على حرمانى من اجتناء ثمرات فوائدهم در المدامع .  
وقد عاقنى عن الفوز بهذا الامل حجاب خيمة الازار ، وحجبى  
قفل خدر التأنيث عن سناء تلك الاقمار . وأحلانى بسجن  
الجهل حليف أثقال وأوزار . فكانت تلك الحجب لمن لام فى  
هفوات هذا المسطور أكبر اعذار . فلا تلوموا معشر الافاضل  
خيبة ، ولا تعبثوا بسجينة شجية . . . » (٢)

. . . وخصوصا . . . لا تلوموا معشر القراء فى هذا

العصر كاتبة مسجعة • لانكم لو رجعتن الى ماكتبه بعض « كبار » النافرين فى عهد الحديوين لعثرتن على ما ليس فيه شىء من احكام عائشة ولا ذرة من صدق عواطفها • ولى من هذا البيان معارض لما جاء فى جريدة « الافكار » الصادرة يوم ١٣ مارس ١٩٢٣ ، استهلالا لمقال عن الصالونات الادبية فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وعلاقة الآداب فى تلك البلاد بالدوائر النسائية الفكرية • قالت « الافكار » :

« كنا نريد أن نكتب شيئا عن السيدة عائشة تيمور باعتبار أن تاريخ حياتها يفيض النور على الحركة الادبية الفكرية فى مصر فى عهد اسماعيل وتوفيق • ولقد أجهدنا أنفسنا على غير طائل وراء الحصول على وصف ولو مجمل أو غير دقيق للدائرة الادبية التى ظلت سنين عديدة تجتمع بلا انقطاع فى منزلها ( بدرب سعادة ) • ولكننا سننتكلم عن سيدة انكليزية ( ليديا وايت ) تشبه السيدة عائشة تيمور من حيث جعل منزلها ملتقى كبار الكتاب والشعراء فى عصرها ••• »

من أين جاء كاتب هذه الفقرة بمعلوماته ؟ أهو استند على قول عائشة : ••• « صرت أتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك فأجد صرير القلم فى القرطاس أشهى نعمة ، وأتحقق أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة ••• » وهى تعنى بذلك أيام اختلافها ووالدتها فى حداثتها القصوى قبل أن تتحجب ؟ أم هورأى ماقد يشير الى ذلك فى القصائد العربية والتركية التى رثت بها بعض العلماء ؟ أم لديه دليل آخر ؟

حاولت الاستفسار عن ذلك من المسيطرين على « الافكار »

فى ذلك الحين فلم أظفر بالجواب الشافى • وتيمور باشا الذى قال قبلئذ ان شقيقته كانت « محجوبة » أجاب على السؤال الجديد بقوله انه يظن « ان ذلك لم يحصل »

أسافرة كانت عائشة - أحيانا - ، أم محجوبة دوما ؟ نقطة فى غاية الاهمية ولكن يتعذر جلاؤها ، خصوصا بسبب تباين السن تباينا كبيرا بين تيمور باشا وشقيقته • فاذا جاء يوما من يثبت بالحجة الناصعة سفور عائشة فى تلك المحافل الكريمة ، سجل للشاعرة فضلا جديدا وشجاعة فائقة ، وأظهر انها بشير التحرر النسوى ليس من الوجه النظرى والعلمى فحسب ، بل بالعمل كذلك • لانها تكون قد حققت قاسما قبل أن يتكلم قاسم



أما وأندية الرجال ليست ، فى الظاهر ، لشاعرتنا فلنتحول الى اللاتى قد تتفاهم معهن من النساء • وفى مقدمتهن « ربة الادب الباهر والقدر الشريف السيدة وردة بنت الفاضل الشيخ اليازجى نصيف » فان عائشة لتمثل بها وتذكرها باعجاب فى ديباجة « حلية الطراز » • وأهدت اليها نسخة من ديوانها بعد صدوره • فشكرتها « وردة العرب » نثرا ونظما ، وأعقب هذه الصلة الاولى تبادل بعض الرسائل أثبتتها زينب فواز فى كتابها « الدر المنثور » • لن تجد فى تلك المراسلة كل الحياة التى يودعها بعض الادباء فى رسائلهم حتى ليتغذى بها أصحابهم أياما وأسابيع ، ويتعشقونها كأنها قطع من أرواحهم • بيد أنك ستجد سبك الكلام اللطيف ، والثناء المأنوس ، والنظم الحلو الرنان الذى



يرضى ويجعلك شاكرا لهاتين السيدتين ما أبرزتا لك من أسلوب المجاملة النسائية الكتابية فى ذلك العصر (١)

وهناك سيدتان قيل لى انهما كانتا تقولان الشعر وهما ابنتا حبيب افندى الكتخدا ، ومن عشيرات الشاعرة • لم أوفق الى شىء من آثارهما وقد قل من سمع بآدابهما بين المصريين • حتى انى قيل لى مرة عند ذكرهما انى أبتدع شعرهما من مخيلتى على نحو ما فعل زفس بابنته بالاس - اثينا التى أخرجها من رأسه تامة الجمال والكمال • لاشىء من ذلك • بل قال لى أحد الفضلاء انه قرأ لاحداهما أبياتا جيدة

ومن معاصراتها الست المغربية والبون بينها وبين عائشة شاسع جدا طبقة وحالة ومعرفة • الا انها كانت امرأة ذكية ، سريعة الخاطر ، تمازح الناس بشىء من الجرأة المتطرفة ، وتتطارح الازجال مع الشيخ على الليثى وغيره • ومن المأثور عنها من دلائل سرعة الخاطر انه اتصل بها يوما ان أحد الباشوات كان يرميها بما هو غير حسن وغير ممدوح • فأجابت المغربية بابتسامة ذات معنى خطر : « والله كلام سعادة الباشا فى محله . . . »

كذلك نعرف زينب فواز السورية المولد المصرية الموطن ، منشئة « الرسائل الزينية » فضلا عن فصولها الاخرى وقصائدها • وهى التى عقدت فى كتابها « الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور » فصلا مطولا عن شاعرة آل تيمور •

---

(١) السيدة وردة اليازجى صاحبة ديوان «حديقة الورد » هى مع عائشة الشماع الاول فى ظلام الحالة النسائية فى الشرق •

وصدرت الكتاب المذكور بخطاب من السيدة عائشة مثقل  
بالثناء والتبجيل على نحو ما كانوا يثنون يومئذ ويبجلون



ويحدثنا « المقتطف » في عدد يونية ١٨٩٧ عن السيدة  
ليلى هانم « كريمة المرحوم خليل باشا شريف من وزراء  
الدولة العلية ، وأخى المرحوم على باشا شريف رئيس  
مجلس شورى القوانين السابق » . فيقول ان هذه السيدة  
« تكتب بالانجليزية مقالات تنشر في أشهر المجلات » وانها  
كتبت رواية غرامية اسمها A Turkish Love Story ترجمتها  
محرر « المقتطف » ونشرها متتابعة في المجلد السادس  
والعشرين سنة ١٩٠١ باسم « رواية أمينة » . قرأت  
هذه الرواية بثوبها العربى بكل سرور فى العام الماضى . ولا  
شك عندى ان الوصف فيها « لحريم » الاستانة يومئذ  
أصدق من كل ما كتبه الا فرنج فى هذا الباب

وليست لتقصر يقظة المرأة على الكاتبات والاديبات بل  
للمهتمات بالشؤون العمومية عن غير طريق القلم اثر قيم .  
لذلك يتسع المجال هنا لذكر المغفور لها البرنس عین  
الحياة الزوجة الأولى للسلطان حسين ( يوم كان اميرا ) ،  
ووالدة البرنس كمال الدين حسين . فانها كانت معروفة  
بالمقدرة والفطنة وحب السهمى الحميد . ومن مآثرها  
الخطيرة الشأن « مبرة محمد على » أول جمعية خيرية  
للسيدات المسلمات ، بيد أنها لم تشهد نتيجة ما دعت  
اليه . ولم يتم انشاء المستوصف الأول الذى أطلق عليه  
اسمها ومازال معروف به « مستوصف عين الحياة » ألا بعد

وفاتها في أوائل ١٩١١ . أما الغرض الذى عينته لنفسها هذه الجمعية فهو « العمل جهد الطاقة - أولا لتقليل عدد الوفيات الجسيم من الصغار في القطر المصرى . ثانيا لتقليل عدد وفيات الامهات الناجمة عن حميات النفاس » .

وماذا اقول عن البرنسس نازلى الملتبهة ذكاء ، البارعة فى الموسيقى وفى اللغات التى عرفتھا ، الخارجة على عادات زمنها بمقابلة من شاءت من افاضل الرجال والتدخل فى مختلف الشؤون العالمية والحوادث الوطنية . ولقد نشر المرحوم ولى الدين يكن فى كتابه « المعلوم والمجهول » صورة خطاب أرسلته الى عبد الحميد فى أيام بطشه وجبروته . وحسب القارىء الاطلاع على هذا الخطاب ليعرف ما كانت عليه من الجرأة والذكاء والنزعة الاستقلالية . قالت تخاطب صاحب الجلالة اليلدزية الرهيبة :

القاهرة فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٩٦

« مليكى

« قرأت مع الاسف الشديد فى جرائد أوروبا التى وردت فى هذا الأسبوع ان مولاي الاعظم غاضب على غضبا شديدا . وعلمت ان السبب فى غضبه حضورى مؤتمر « تركيا الفتاة » الذى عقد بباريس . ولهذا ارجو الاذن لى ببيان ما يدور بخلدى فى هذا الباب :

« ان استهدافى للغضب الملوكى ليس بالامر الحسادث . ولكنه مستمر منذ اربع سنوات : واذا وجب ان يميز من حل بهم ذاك الغضب سهل تعيين الفئة التى ينبغى ان أحشد فى عدادها . غير ان حضورى مذكرات هذا المؤتمر

ليس تذرعا للشهرة . فهو اذن منزّه عن كل غرض ذاتي  
« يذكر مولاي الاعظم أنه قال ذات يوم للمرحوم خليل  
باشا شريف : « انى مغرم بكلمة الحق » . ولقد بشرنى  
المرحوم بهذه البشارة الملكية وتعاهدنا كلانا منذ ذلك ان لا  
نحيد عن كلمة الحق

« قرأت ما ينشره هذا المؤتمر منذ زمن مديد واطلعت على  
اللوائح التى رفعها الى الاعتبار الشاهانية . ولما كانت هذه  
المنشورات بمثابة كلمة حق فى وصف الدمار الذى باتت  
فيه الممالك المحروسة الشاهانية، رأيت ان احضر مذكراته  
عند نزولى بباريس

« فشهدت من الجميع منتهى الود والولاء للمقام الملوكي  
وللوطن والامة . ورأيت الجميع باكين لحال الوطن الذى  
بات على شفا الفناء . فهاجنى ذلك وتذكرت ان مولاي  
كان مغرما بكلمة الحق ، فظننت وأسفاه انه ربما تسلى  
عن ذلك الغرام . ولكن هز فؤادى ما عاهدت الله عليه  
وأيقنت ان العشق يزول والعهد يبقى

« ولما زرت الأستانة منذ اربع سنوات أوصانى بعض  
المقربين بأن أرفع الى مولاي عريضة استقيل بها من هفواتى  
ولما لم يكن لى علم بهفوة سبقت لى لم اقدم على هذا الامر .  
فقد تغيرت سياسة مولاي مع الانكليز . وذهب الرضاء  
الذى كان توسط لى فى نيّله المرحوم السير هنرى لايرد :  
وأنى لاتلقى بكل ارتياح توسط الانجليز لى فى احراز رضاء  
مليكى . بل اشكر اليوم ما أصابنى من الغضب الملوكى .  
وان فى بعدى عن مشاهدة ما وقع بالاستانة من الزلازل  
وما نزل بالرعية من الفقر ، وما جرى من دماء المظلومين

الذين ذبحوا كما تذبح الأضحية ، وعن سماع استغاثات  
المظلومين وتأوهاتهم ما يسلينى وما أحمد الله على بعدى عنه .  
وسأستمر لذا على العمل بنص الامر الملوكى الذى بلغتني  
الحكومة المصرية غير رسمى - ما دامت لى الحياة

« على أنى لا أبرح داعية بطول عمر مولاي وبقاء دولته . ولا  
أبرح داعية بأن يعود له سالف غرامه بكلمة الحق . فاذا  
قدر الاله ليزولن يؤس اليوم كما تزول الرؤيا المفزعة .  
فيصبح سعيدا مهنا . ويلقى رعيته فى رغد بالاتحاد  
والحرية فان رعيته لا تريد منه الا أن يكون أباً مشفقاً

ولعلى تجاوزت الحد وأسأت البيان . فلست أدري مبلغ  
وقع ما أتشرف بعرضه . فليثق مولاي ان كلام أصدق عبده  
فى زماننا هذا لا يختلف عما جرى به قلمى . وليوقن مولاي  
ان ورقتى لم تسطر الا بخالص النية وصادق الولاء (١)  
خادمتك نازلى

بنت المرحوم مصطفى فاضل باشا المصرى »

يجب لتعلم قيمة هذه الرسالة أن تعلم من هو عبد الحميد ،  
وكيف كان ينتقم من مناهضيه فى أية بقعة كانوا من الارض .  
فكيف بهم فى مصر ومن أعضاء الاسرة المالكة

قد يفوتنى أسماء أخرى معروفة . وقد يكون ثمت سيدات  
كثيرات ذكيات قديرات من اللاتى يدجن فى « الطراز القديم »  
وقد يدهشن العالم والمحنك بأسلوب ادارة بيوتهن وأعمالهن  
وأملاكهن لوفرة ما يبدن من الخبرة والدراية - حتى ولو كن  
أميات . ولكن أيكوز لمثل عائشة من مثيلاتهن بيئة معنوية »

---

(١) عن « المعلوم والمجهول » جزء أول . وقد قدم ولى الدين بك هذه  
الرسالة قائلاً أنها منقولة عن جريدة « حدام » التى كان يصدرها شقيقه  
يوسف بك حمدي يكن

## بيئتها المعنوية

لم يكن للشاعرة من بيئتها الاجتماعية البيئة المعنوية المطلوبة . ولا اظنها نعمت من ذلك العصر بما نحن اليوم نفتقر اليه

ما سمعت اديبا يذكر اهمية المحيط ومبلغ تأثيره الا سمعت منه الشكوى . ما حدثنى مطلع على شؤون الشبان العائدين من اوربا الا قال انهم بعيد وصولهم يشعرون بنقص علمي عظيم حولهم ، ولا يلبثون ان يفهموا انهم عائشون في وحدة فكرية وفنية بعيدا عن تواصل الحركة الذهنية في العالم . ولا يعرف مرارة تلك الوحدة وصقيعها الا الذي ارغم على تقطيع الاعوام والاعوام تبليه في انفراد ووحشة . لا يعرفها الا الذي صرف الايام والليالي جائعا عطشا ، وهو يعلم انه في قفر لن ينبت له في القريب العاجل قوتا ولن تفجر له منه المفاوز منها

حال محزنة حال التائق الى ما يعلو على العيشة الملامسة الثرى . حال محزنة حال الاديب الصميم في عصرنا والمتأدب . انه سرعان ما يتصدى له من يناقض ويعاكس ويتمطى ليقدم له ويؤخر ، ويفصل في قماشه ويخييط ، وسرعان ما ينبرى له وللعالمين من يقدح ويهجو لسبب او لغير سبب ، او لسبب جدير بالتقدير . وسرعان ما يسمع المدح المائع

المتهدل لا اعترافا بالاهلية، بل عن هوس ، أو حمق، أو لغاية .  
وقد يجد من يمتدح باخلاص ولكن ببلاهة فيجعل الذبابة  
فوق النسر، أو يسيرهما في فلك واحد لانهما يطيران وكلاهما  
من « ذوات الاجنحة » (١)

اما تجانس الخواطر ، وحب الآداب ، وسعة الادراك في  
تحليل الاشياء وتقديرها ، والاحكام في وضعها وترتيبها ،  
والغوص في المعانى الواسعة ، وفهم مناحى الحياة والعناية  
بخصائصها كما هي لا كما يراد حصرها في شخصية واحدة -  
كل تلك القبضة المعنوية التى نطلبها بأشواقنا ولا نحسن  
التعبير عنها ، فليست بعد لنا . وهى مفقودة في هذه البلاد .  
بل ندر الذين يفهمون ارتفاعها ونبلها من الأفراد  
وأولئك هم المعذبون

وستبقى هذه الحياة مفقودة ما بقى التعاطف الأدبى غير  
موجود . واذا طرح اليوم متحمس النداء المستثير فكأنه  
يستنهض انبثة تضطرب وتتحرك في مكانها وقد حظر عليها  
الخطو والانتقال . وتمضى الصيحة الرجافة فترتطم نبراتها  
في الهواء ثم ترتد على مرسلها ثقلا باهظا كأنما يعترضها في  
المضى جدار كثيف تختنق عنده الاصداء فترتد على قلب  
مرسلها ثقلا يجر معه معانى المحال وانقطاع الرجاء - الى  
حين .

---

( ١ ) كأن عائشة شعرت بهذا في أيامها وأرادت الردع عنها بقولها :

الناس شتى فى الصفات فلا تكن

ممن يقيس الدر يوما بالبرد

ان قست - فظما بالرفيق فلا يلم

من بعد نفسك فى الورى ابدا احد



والمدحش بعد كل هذا ان تجد منا من يشب وينهض  
ويتفوق . يتفوق ليس على قياس مدح المداحين ، وهجو  
الهجائين ، ومسرى الذبابة والنسر في خط واحد . بل هو  
يرتفع رغم المشبطات فوق الصدمات والموانع .

يرتفع ويبدو عظيما وكان اسمه وحده يكفي ليقول .  
« انى موجود واثري متسرب الى جمودكم ليقلبه حركة ! . .  
انى موجود ، وحميتى ماضية في خمولكم لتثيره نهوضا ! . .  
انى موجود ، وعزمى متغلغل في قلقكم لينسقه انتظاما ! »  
قلت مدهش ذلك ؟ كلا ، بل هو خطير !

أليس اشد دلائل القوة خطرا فى ان يظل النسر محلقا ولو  
مهشما داميا ؟ . ان يظل محلقا . حتى بجناحين مهشمين  
داميين ؟



ولعل الحياة تحتال على بنيتها ، لا سيما الاصفياء منهم  
عندما توسعهم مقاومة وتشبعهم تعديبا ؟ لعلها تودعهم  
حاجات ومطالب تعلم سلفا انها غير مهيئة لها ما يقوم بها  
ويحققها . وما ذلك الا لتلح على الفرد الموهوب ان يجنى  
المعونة والتعزية والقوة من اعماق وحدته ، من اعماق وجعه ،  
من اعماق قنوطه ! لعل لها غرضها من المنع والحرمان فيظل  
لابنها المختار ان يخلق لنفسه عالما يملأه ببرايا هواجسه  
وبأشباح ما يحب ويأمل وينشد . يظل له ان يبدع ما ينقصه  
ابداعا ما ، ابداع التخيل والتدوين ، فتكون الحياة لذاتها  
عن هذه الطريق صورا جديدة من لهف الحرمان ، وزفرات  
الاسى ، وتجمد الدماء التى لا تسيل ؟

أم لعل الحياة في أحشائها كلوم يعوزها البلسم ، وهو لا  
يستخرج من شكوى البؤساء . فتخلق لهم المحن لتسمع  
مثل هذه الزفرات التي ترسلها عائشة في خلوتها :

أعلل نفسي والأمانى كثيرة  
وما كان أغنى النفس عن ذا التعلل

فلا الوقت في أمرى فأقضى مآربى  
ولا الدهر يصفو لى فأكمد عدلى

ولا النيل يدنو لى فأروى بفيضه  
ولا الصبر طوع لى فتحلو الحياة لى

ولا الحظ ذو سعد ولا البخت مسعف  
ولا مهجتي صلد أقول تحملى

ولا لوم ان وارىت فى الترب جثتى  
وقلت اقيمى حيث ذلك منزلى

اى انها تحبذ الانتحار فى هذا البيت الأخير . ومن ذا  
الذى لا يشتهى الموت فى بعض لحظات الألم ؟ . ثم تعود  
الى طلب المسرة والهناء ، ولكن لتلقى خيبة أخرى :

والله ما همت حظا باسم داعية  
الا واعقبت فيها الهم من اسفى

ولا سميت باقوى العزم فى أرب  
الا رجعت طريح الارض فى دنف

أو لترى السرور يتحول الى الألم شأن كثير من مسرات  
الحياة !

وما منحت بيوم قد أتى غلطا  
بالانس الا وقامت فيه غاراتي  
ويظل الاختبار يحذر وينذر :  
لا تفرحن بدنيا اقبلت وصفت  
بكل ما ترتضى ، واحذر عواقبها  
وترقب احوال الناس فيسؤوها منها الخلل والفساد :  
حسن الوفاء وصدق الود قد صرعا  
واستوحشا بغيافي الغدر وانصدعا  
كلاهما من سقام لا مساس له  
حزنا على الحق والانصاف مذ صرعا  
واولئك الادعياء الناعتون نفوسهم بما ليس فيهم ،  
المتلمظون لأن الفرص سنحت لهم ضللا بأن ينزلوا الاذى  
بما يحيط بهم . وهم يحسبون واجب البشر كله في ايقاف  
الجهود على اشباعهم وارضائهم - كيف تذكر اولئك ان لم  
يكن بلهجة الازدراء والاختار هذه .  
آل الفرور لقد ساقوا نجائبهم  
شرقا فغربا فداست كل مالاقت  
ظنوا الزمان على رغم يطاوعهم  
وآن أوقاته طوعا لهم راقا  
وليس الا عدوا سوف يفجأهم  
برقط غدر الى عاداتها اشتاقت  
ألا يذكر هذا البيت ، لا سيما الشطر الثاني منه ،  
بالمعري وأرائه في الدهر وعربدته على الدنيا التي كثيرا ما  
يشبها بالحية الرقطاء ؟

وهكذا تجد عائشة الألم عوضا عن الهناء . وليست  
الآلام الملموسة البارزة انكأ الآلام . بل قد نفضل أحيانا ان  
نصاب بما يسحقنا ويجرفنا بشدة جرف العاصفة لأوراق  
الخریف ، بدلا من معاناة ما نسكت على مضضه مما نأنف  
التفكير فيه مليا ، ونستنكف شرحه مع عجزنا عن مقاومته  
والابتعاد عنه .

ولربما آثرنا الداهية الدهماء تعبث بنا فتذرنا هباء ،  
على مقاساة نكال متقطع متتابع كوخز الأبر . نكال لا هو  
يشتد فيقتلنا ، ولا هو يكف لحظة لنتخدر . ولا يكون عقابا  
على ذنب فنثوب ونتفادى . بل كثيرا ما يجيء مكافأة على  
الحسن فيفعم القلب مرارة



اجتمعت في أوائل مايو ١٩٢٢ بالاستاذ الشيخ الغمراوي  
المفتش الأول للغة العربية في وزارة المعارف . فذكرت  
عائشة فقال : « انها شاعرة عصرها وان اسأوا فهم كثير من  
معانيها » قلت « مثلا ؟ » فقال : مثال ذلك قولها :

ما ضرني أدبي وحسن تعلمي

الا بكوني زهرة الالباب

فما يفهمه الشخص العادي من هذا البيت انها تمدح  
نفسها مدحا يشبه الدم . وما ذلك الا لقصر النظر اولتعمد .  
في حين هذا القول يقرر أمرا واقعا تأملت من جرائه . ذلك  
ان بعض السيدات كن يسمعن عليها الثناء الذي لم تربحه  
بالتظاهر والتهويش بل بالكفاءة والكرامة . فيثور منهن  
الحسد فيعمدن الى تشويه الحقائق والتحريف والتعريض .

يشعرون بالقصور عن مجاراتها فيستسلمون لتعذيبها  
والحاق الأذى بها على مختلف الأساليب انتقاما لنفوسهن  
من تفوقها . فشعرت بهذا وتألّت . لذلك قالت « ما ضرني  
أدبي الخ »

هذه خلاصة كلام الاستاذ وهو من الصحة بحيث تجد  
له طائفة من الأدلة في شعر عائشة كقولها :

وكم حليفة سعد إذ تعنفني

تقول سعيك مدموم النهايات

فاخفض الطرف من حزن أكابده

واهمل الدمع من تلك المقالات

واها لتلك الدموع ! تنصب في القلب عند كلام الحاسد  
والمتطاول ، وتدفع الى التشاؤم في نبالة الفطرة البشرية ،  
ثم تنهمر في الخلوة لاذعة محرقة . على ان عائشة عذبة  
بطبيعتها فهي لا تشور سريعا . بل تتجلد هنا وفي معاكسات  
أخرى وتكافئ الشر خيرا حتى نفاد الصبر :

ومذ اتت عدلى تبغى مصادرتي

ظلما منحتهمو أسنى الكرامات

وكلما عددوا ذنبا رميت به

بسطت للعفو راحات اعترافاتي

وكلما حرروا منشور مظلمتي

واظهروا في الورى غدرا جنائياتي

اظهرت شكرى لهم بالرغم من أسفى

وكان ما كان من فرط التهباتي .

واها لتلك النصال تغمدها في القلوب ايادى الغرباء وايادى  
المعارف والاصدقاء !

واها لتلك الايدى التى احسنت الينا ، وتلك الاخرى  
التى احسنا اليها ، تمتد لتأتى اشارة تمحو جميل الذكرى  
حيننا وتحجب رقيق الشفقة دهرنا !

وتلك الكلمات الفاترة الركيكة وذلك الترفع المصنوع  
الحقير ! وتلك العناية التى سرها التقليل ! وذلك الشرح  
للثناء فى الظاهر وكل الغرض منه التصغير والتحديد السخيف !  
وتلك الشبكة الواسعة التى يحبكها حولك الاغتياب  
والافتراء ويلصق بك ما يلصق من التهم والذنوب ! فتفكر  
اولا فى الدفاع عن نفسك امام الذين تحسبهم افطن من غيرهم  
واقرب الى الانصاف . وبعد قليل تصمم على السكوت كبرا  
وازدراء . ذلك ما تعنيه الشاعرة :

ولم افه لى ذوى رد لمعرفتى

ان الحبيب حبيب فى المسرات  
طبعاً . هم كذلك اصدقاء المجتمع ، الاصدقاء السطحيون  
والآخرون المتقمصون فى اثواب الاصدقاء والمتكلمون  
بلسانهم كيف يركن اليهم . لذلك :

اخفى الاسى ان حسود جاء يسألنى

لاين أسمى ، وأومى لابتهاجاتى

وقد تخفيه احتشاما وصيانة لكرامة الالم ، وقياماً بالواجب  
الذى يمتنه أولئك الذين يكرهون الناس اكراها على  
مخاشنتهم ومقاطعتهم لأن الجفاء الوسيلة الوحيدة للتخلص  
من تطفلهم . يزعمون الناس بلا مراعاة فيخسرون حتما

عطف القلوب . يتجاهلون أن لكل شيء حدا طبيعيا ، وأن  
اعصاب بنى الانسان ليست من حديد . فلا تحمل النواح  
والشكوى والالاح والمضايقة الا لحين . وأن واجب المسرء  
الاول نحو صحته لا سيما وأن له من مسؤوليته وشؤونه ما  
يتحتم القيام به أن يضن بكل تأثير مضر وأن يقلع عن كل  
اضطراب عقيم

أن التحدث بالهموم وشكوى الغموم مرض شرقى متأصل .  
وكأننا اقرب الشعوب الى رجم الآخرين بالامنا واوصابنا  
فى كل زمان ومكان . وليس ادل من هذا على الضعف  
المعنوى وضعف الخلق . . ليس ادل من هذا على الحاجة  
الى التهذيب .

وكانى بعائشة مطبوعة على هذه الصيانة الخلقية والكتمان  
النبيل فهى تقول :

اقوم والضيم تطوينى نوائبه  
طى السجل ، ولم اسمعه اناتى  
ان ضل سعى فهادى الصبر يرشدنى  
الى طريق رشادى واستقاماتى  
اما والقلب المعذب يظل على نبله ، فى حاجة الى ان يث  
كربتة لصديق ذى حول ولطافة ، فعائشة تتجه الى القلب  
الرؤوف الاكبر الذى لا يقلقه انين البرايا :

ولم ازل اشتكى بشى ومظلمتى  
لعالم الجهر منى والخفيات  
وقد يحسن ان ادغم فى هذا الباب ملاحظة اخرى : هناك  
نكتة تكاد تكون الوحيدة فى كل كتاباتها ، وقد ظهرت كل



الظهور في عصرها دون تمييز في الموضوعات . فتجدها  
امامك في المرض والعافية ، في رثاء الاحياء وفي آهات الفرام .  
موضوعها الطب والاطباء .

وقد تشير الى قلة ثقة الشاعرة بابناء ابقرات الجهابذة  
النطس . قالت تتهمك على طبيب في ثلاثة ابيات مفردة :  
يا من أتى للجسم يبرئ سقمه

ويظن جالينوس بعض عبيده  
افنيت بالطب الذي تهدي به  
أما ، وقربت الردى ببعيده  
وزعمت انك انت قد جددته

ولقد اضعفت قديمه بجديده  
وهاك ما يعنى أن يأس الطبيب في نظرها أمل :  
إذا يئس الطبيب وكل عني  
بقدرته بما ارجو حبانى

وهذا استهزاء بالاطباء وتوقع من رمد عينيها :  
تخالفت الأساة بطول وعد  
يعللنى ، ويأس فيه حينى  
ومن فظ يهددنى جهارا  
بمبضعه المصوب فى اليدين  
وقد عفت الأساة وعدت ارجو

طبيب الكون رب المشرقين  
وفى وصفها لاقوياء العالم وضعفهم حيال الردى :  
يؤوب بالعجز اقواهم اذا ألم  
به ألم ، ويبدى شر حشرات

يلوذ ضعفا باذيال الطبيب ، وما  
يفنى الطبيب لدى فتك المنيات  
وكذلك كان لها في الرثاء مجال لاظهار عجز الطب والاطباء  
فقد جاء في مرثاة والدها :

رجع الطبيب بيأسه متسرلا  
وأراق جرعته على الحصباء  
وفي مرثاة ابنتها :

جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفاء  
ان الطبيب بطبه مفرور  
وصف التجرع وهو يزعم انه  
بالبرء من كل السقام بشير  
فتنفست للحزن قائلة له  
عجل ببرئى حيث انت خير

وارحم شبابى ، ان والدتى غدت  
تكلى يشير لها الجوى وتشير  
واراف بعين حرمت طيب الكرى  
تشكو السهاد وفي الجفون فتور

لما رات يأس الطبيب وعجزه  
قالت ، ودمع المقلتين غزير  
اماه قد كل الطبيب ، وفاتنى  
مما أوئل فى الحياة نصير  
لو جاء عراف اليمامة يبتغى  
برئى ، لرد الطرف وهو حسير

ومن مثال ذلك في شعرها الغزلي :  
سرورى باللقا ونعيم قربى  
اعاد بعودك الميلاد ثانى  
لقد أرغمت كل طبيب سوء  
اضاع بهزله طول الزمان  
وغيره :

لو شخص الداء جالينوس اعجزه  
وقال لقمان تكلفى به باطل  
كيف الشفاء ومن إهواه فارقنى  
هيهات ان الهوى بحر بلا ساحل  
جاء الطبيب يداوينى فقلت له  
دع عنك طبى ولا تتعب بلا طائل  
تعذر الطب والبرء انزوى ونأى  
عنى ، ولونى من فعل الهوى حائل  
وما ينفع الطب والاحشاء فى حرق  
والجفن من فرط وجدى دمه هائل  
واحسن دواء ينجع وينشد هو ذا :  
أرنا زمان الأنس يا وجه الحبيب  
واحذر ، حماك الله ، ان يدرى الرقيب  
دعنى ، لانى باللقبا قلبى يطيب  
ودع العلاج وما يقول به الطبيب

عفوكم يا سادتنا الاطباء لئن قال بعض الشعراء ان بعض  
الأمراض خير من بعض الاطباء ، فلكم من شاعر قدر افضالكم  
على المرضى والاصحاء على السواء ؟

ولكم من شاعر جعل الطبيب عالما وحكيما ورسولا في  
آن واحد ، عندما يدرك كرامة مهنته وكل ما تقتضيه !  
واذا كان الاصطلاح العربي ماضيا على التوحيد بين الطب  
والحكمة فينادى الطبيب « حكيما » ألا ترون في بيان  
الشعراء وتوقيع اسجاعهم ما عمل على حفظ تلك العادة  
التقليدية ونقلها من جيل الى جيل ؟



وبعد هذه العوارض فلنلخص :  
البيئة المعنوية الصميمة كانت لعائشة في كتبها وأوراقها ،  
وفي الكتب التي تقرأ ، وفي الأوراق التي تحبر . ففيها كانت  
تجد التعزية ومنها المعونة . واذا اصابها الرمد شكت بلغة  
التوقيع !

اذا شكت الوري سقم العيون  
فانى أشتكى ألم العيون  
أبيت كواله أضناه وجد  
أنادى من جفونى ! من جفونى !  
فلا جفن يطاوعنى فأبكى  
ولا صبر أزيل به شجوني  
واذ طال رمدها طلبت كتبها وأوراقها كما يطلب الحبيب  
الغالى :

أمس الكتب من شغفى عليها  
وأبلى حسرة من سوء حالى  
واندب مهجتى حبا لأنى  
حرمت بدائع السحر الحلال

وليست لتشفف فريدة • بل هي ككل محب تريد عند  
حبيبها مثل ما عندها • فتتيل الاوراق والمحابر والاقلام روحا  
تحس وتشوق وتبكي :

نعانى أبيض القرطاس لما  
جفانى اليوم نور الاسودين  
وقد جفت دواتى وهى تبكى  
لما قد راعها من طول أبنى  
وأقلامى قد انشقت لأنى  
حرمت مساسها بالاصبعين

كذلك كان وسط عائشة من أرواح المؤلفين والشعراء ومن  
نفثاتهم ، من أرواحهم كان لها أسرة تناجيها • فتحدث اليها  
وتصغى حيناً بعد حين

وفى تلك «الغربة» التى تأوى اليها أرواح الخواطر كتبت  
أشعارها العربية المجموعة فى ديوان «حلية الطراز» وديوانها  
التركى والفارسى « كشوفة » و « نتائج الاحوال » ورسالة  
صغيرة اسمها « مرآة التأمل فى الامور » هذه هى بيئتها  
المعنوية المحبوبة

## حبها لاسمها

والاسم . . أليس هو أول علامات الفرد في جماعته ؟  
« على أى شىء يحتوى الاسم ؟ » يسأل شكسبير بلسان  
جولييت ومن منا لم يتساءل عن اهتمام البشر الى  
التسمية وعن رائدهم فى ذلك ؟ ألا تصغى الى همس خفى  
وراء الاسم ، والكنية عند سماعها للمرة الاولى كأن لهما  
ذاتا خفية وراء المعنى الظاهر ؟ أليس من هذه الروحانية  
المستترة أستخرج معنى الحساب بالارقام والحروف ، الذى  
لا يستهان به فى أصوله الفيثاغورية ؟

الا أن الشاعر العربى القائل « الاذن تعشق قبل العين  
أحيانا » عبر عن جانب من حقيقة روحانية عميقة ومضت  
له فى لحظة الهام واشراق

راجع ماشئت من الاسماء التى تعرف أصحابها معرفة  
شخصية أو معنوية ، تر استحالة تبديل اسم بسواه . كأنما  
تلك اللفظة التى يعرف بها المرء عن طريق الانتحال أو بالمناداة  
منذ الولادة ، أصبحت جزءا أساسيا من ذاتيته ، أو صارت  
على الأقل من أدل الدلائل عليها . وفوق ذلك فان معنى  
الاسم الواحد يتغير باطلاقه على أشخاص مختلفين . هذا  
شىء يعجز الوصف الا اننا نشعر به بجلاء . ترى الآن شخصية  
الفرد تتفاعل وشخصية الاسم بامتزاجها بها ؟

ان ما يحدو بى الى هذا الشرح هو شغف عائشة باسمها،  
شغفها بأسمائها الثلاثة ، فانى لم أر فى مطالعاتى كاتباً يشبه  
عائشة من هذا الوجه ، لا فى الشرق ولا فى الغرب

شغفت بكل اسم من أسمائها الثلاثة ورضيت بها جميعاً  
فى بيئتها المعنوية فلم تنتحل اسماً جديداً . وأحسنت  
توزيعها اذ خصت شعرها العربى باسم « عائشة » وشعرها  
التركى والفارسى باسم « عصمت » حتى لتكاد ترى هذه  
الكلمة فى ختام كل قصيدة من قصائدها « كشوفة » وخصت  
اسم عائلتها بنثرها

ولماذا هذا الشغف ؟ لكأنها متينة الشعور بالصلة بين  
المسمى واسمه . أو كأنها تذكر قولاً مأثوراً عند بعض  
المشاركة ، وهو ان الاسم ينزل على صاحبه من السماء !  
أو كأنها تطرب له لأنه اسمها ليس غير ، وأنه أول علامات  
بين الناس ! أو كأنها تتشبه بداهة بذلك الفيلسوف الهندى،  
يقضى الوقت الطويل مكرراً لنفسه اسمه حتى تنكشف له  
حجب الغيب فتستيقظ ذاته البصيرة العليمة رائية ما يجرى  
على بعد مسافات ، سامعة ما يقال فى البعد السحيق ! جميل  
معنى « عائشة » وجميل معنى « عصمت » أما « تيمور » -  
فعلى عهدة من شرح لى وفسر - فلفظة تركية أصلها فى اللغة  
العامية « دмир » . ومعناها الحديد الصلب الذى لم يصقل  
بعد . ولذلك يخطئ من يطلق هذه اللفظة على تيمورلنك  
للتصغير أو للاختصار . لأن معنى « تيمورلنك » نصل  
السيف المصقول



على اننا قبل الانتباه لمعنى هذا الاسم نتأثر بوقعة المرمى  
للسمع . وهو يمثل ( على ما يلوح لى ) مزيجا من نبرة الامر  
العسكرى وأبهة وقورة رزينة . تمسها كآبة طفيفة ووداعة  
وبعد ، أيتسع معنى الاسم فتكون كلمة تيمور رمزا الى  
أن الطبيعة النسوية المصرية بدأت تصقل بعائشة ؟

لكنها لم تأخذ الاسم كما هو بل أطلقتته على نفسها بصيغة  
النسبة . فاذا بها « التيمورية » وفى هذه الايام حيث صارت  
اللقاب والنعوت طوفانا يغمر الصالح والطالح على السواء  
أصبح عدم اللقب لقبا وغدا التجرد من النعوت نعتا .  
فجمل بنا أن نوجز فى نعت الشاعرة المصرية وأن نسميها ،  
حيننا بعد حين ، بهذا الاسم الآخر الذى أحبته ووضعته فى  
فم أشخاص يستشهدون بأقوالها ويضربون بأشعارها  
الأمثال « التيمورية »





## الفصل الخامس

شاعرة بثلاث لغات



## عبقريتها اللغوية

قالت التيمورية شعرها بالعربية لغة وطنها المصرى . وبالتركية لغة آبائها ، وهى لغة لا يزال التخاطب بها فى بعض الاسر ذات الاصل التركى . وقالته بالفارسية التى هى لفئة من أدباء العرب والترك لغة « مدرسية » ، شأنها عندهم شأن اليونانية واللاتينية عند الغربيين . والسبب فى ذلك علاقة الفرس بهذين الشعبين الشرقيين من حيث السياسة والتاريخ

ليس بوسعى درس شعرها غير العربى لجهلى اللغتين اللتين كتب بهما . على انى اذكر هنا شبه شهادة سمعتها عرضا من شقيقها احمد تيمور باشا . وهى قول المفخور له السلطان حسين لسعادته انه « يفكر فيه كلما رأى ابنته قدريه تقرا فى ديوان السيدة عائشة » . وهناك شهادة مسجلة فى آخر الديوان المذكور « كشوفة » ، وهى رسالة من « ايران دولت عليه سى مصر قاهره قونسولى سعادتلو دوقتور ميرزا محمد مهدى بك افندى حضرتلى »

ولكن هل تعنى الشهادة والانتكار دوما كل ما يوصف فيهما ؟ نقرا أحيانا وصف بعض نتاج الاقلام عندنا فنحسب اننا مقبلون على مثل ما ابرز اوربيدس ودانتى وشكسبير . فنحملك بالعيون والقلوب فاذا بنا نطالع شيئا حسنا قد

يجوز « تشجيع » صاحبه . أو شيئاً غير حسن يتحتم ان يحرم كاتبه من الفاكهة والحلوى طيلة اسبوع على الاقل لنكونن اذا من انصار اللاشهادة ما بقينا في هذه الفوضى الاطنابية . غير اننا لا يسعنا الا الاعجاب بقلم يعالج الشعر والآداب في لغات ثلاث

لا يذهلنا الآن ان يتكلم الشخص الواحد بثلاث لغات او اربع ، وان يتكلم باعة الدكاكين وغلمان البواخر والمقاهى والفنادق بما يربو عليها ، لعلمنا انهم لا يستعملون الا الكلمات المألوفة التى تفى بالاغراض السطحية . لا يذهلنا ذلك لتتابع الاحتكاك والاختلاط بين الامم . بيد انه ندر حتى بين مشاهير الشعوب من الافذاذ من عرف اكثر من لغتين معرفة عبقرية



عبقرية اللغات عبقرية مستقلة . هى حذق عميق رشيق ينفذ فى ارواح الشعوب ويأوى اليها ، ثم يتحول اتساعا وعلوا فيشمليها . كأن الفرد الموهوب يتقمص فى كل شعب يدرس لغته فيتوحد واياه حيا بحياته ، ناطقا بلهجته ، مدركا منها الخصائص والمستعصيات . ويفسر الروحانيون هذه الموهبة بما يفسرون به المواهب الاخرى والعبقریات . اعنى نظرية الاعمار المتكررة بالتناسخ والتجسد بين شعوب مختلفة

وقبل الالماع الى الشعر العربى والكلام عن شعر عائشة اعلم أن قولى لن يرضى انصار القديم ولا انصار الجديد . ولما كنت من ألين الطبائع عريكة كنت مستعدة

لتغيير فكرى بشرط ان يقنعنى السادة المثقفون . وبعد  
فلنبدا متوكلين على الله

ليس أعسر من تعريف الملكة الشعرية وتحديد الشاعر .  
اصحح ان الشعر كله رقة وعدوبة واحساس وموسيقى  
دون تفكير ومعرفة وبحث وقوة ؟ ام هو مزيج من كل ما تفنيه  
الحياة وتولده من المدركات والمحسوسات ، سبك في قوالب  
متعددة وفقا لانظمة بديهية تملص كالشعر نفسه من حظيرة  
التفهم والادراك ؟

الشعر احد اساليب التعبير عن خواطر وعواطف وحاجات  
ما فتئت الانسانية تستوحىها وتنفعل بها . قليلة هى تلك  
المعانى الاساسية . بيد ان شعبها ومناحيها تذهب كل مذهب  
وتضرب من اعماق البحار الى اقطاب الارض ، الى فسيح  
السموات ، الى رحبات الزمن فى الازل منها والسرمد

ولقد بدأت الهممة الشعرية عند كل قوم بوسيلة من  
الوسائل . عن طريق العبادة ، او تعظيم الابطال ، او شكوى  
الآلام وبث الغرام . ويظهر ان الداعى اليها عند العرب هو  
سير الاطعمان فى البوادي وانتقال القوافل فى وحدة القفار  
فاهتدوا الى الحداء مستحثين الابل فى مستعر الرمضاء .  
فخفت الابل سيرا وانتعش منها النشاط ، وارتاح الحادون  
الى التشيد يجدون فيه ملهة عن المشقة وتسلية للتعب  
والضجر . وتطرقوا بعدئذ الى تنويع الموضوعات فتغنوا  
بمزايا المحبوب وشبهوه بما يعجبهم من خصائص الحيوان  
فى الفلوات التى يجتازون . ووصفوا وحشة المضارب المتنقلة  
والآثار العافية ، ومرارة الوداع والفراق . وعددوا مفاخر



القبيل والنسب ولذائد العشق والحرب والغزو والتطعين  
والاخضاع

وكان من ثروة اللغة في الالفاظ والاستعارات « لكثرة  
القبائل المتكلمة العربية » مساعد على التزام البحر والقافية  
في تنظيم الحداء . فأوجد هذا في الشعر العربي طلاوة وغنى  
في الوتيرة الواحدة . وجزالة ونكهة بدوية ودقة لفظية تفرد  
بها دون غيره . ومنه كذلك جميع العيوب التي يسبح  
فيها شعرنا الا القليل كما في بحر طام

يصمم اكثر شعراء العرب على تقليد هذا الشاعر او ذاك  
من القدماء بدلا من أن يجروا وراء سليقتهم الفردية ، فينجم  
لنا «طبقات» جديدة مشوهة من الشاعر المقلد . ويخاطبوننا  
بلغّة عصور خلت ونحن اليوم في عصر الحيرة والتردد والثورة  
الكبرى . فمن الاعجاب بالجزالة البدوية جاء حب النسخ  
والتقليد ، وعنه نجم الفقر في الخيال العربي ، والتقيّد باللفظ  
دون المعنى ، وجمع الفكرة في كل بيت بمفرده ، والخلل في  
اتساق الخواطر ، والقصور في تنظيم أجزاء الخطاب . حتى  
انك كثيرا ما ترى وجوب جعل آخر القصيدة اولها ومنتصفها  
آخرها

وعن التقليد نتج حصر الشعر في ابواب المدح والهجو  
والرثاء والحماسة والفخر والنسيب ، والحكمة احيانا .  
وعنه ترتيب الدواوين على الحروف الابجدية لان التواني  
وشيوع الموضوع يفقدان كل قصيدة عنوانها كما يفقدان  
كل ديوان فهرسه . وعنه خصوصا نجم اهمال التاريخ في  
قصائد الشاعر ومؤلفات الكاتب . كأن نمو الفكر ومماشاة

التطور دورا بعد دور شيء لا يلتفت اليه . مع ان معرفة التاريخ ليست دون معرفة الحوادث والمؤثرات والسن والبيئة أهمية في تفهم فصل او كتاب



جميع هذه العيوب في ديوان التيمورية حيث لا تنظيم ولا تنسيق ، حتى ولا تبويب على الابدجية ، ولا اثر للتاريخ في القصائد - الا القصائد التاريخية في السطر الاخير منها ! ولئن جرت على عادة العرب في التعبير ، أى الافصاح عن عواطفها غالبا باستعارات من سبقها ، فالامر الذى يسببني في شعرها ان شخصيتها تبدو من خلال المحفوظات كما يبدو الجسد في لوحة تصويرية من خلال الانسجة الشفافة وقد تفلتت من عيب «المفاخرة» بذويها واهلها. ولا هي تبدأ بالتغزل لتنتهى بالاطناب . وليس للاطلال والمضارب ذكر في قصائدها . واما من حيث الصدق فاظنها في مقدمة الصادقين من شعرائنا . ومعظم استسلامها للغلو في جزء خارج عنها وهو شعر المجاملة . بينا هي في شعرها الذى يرسم نفسها ساذجة مخلصة عذبة تروى حديثها بأسلوب ليس هو بالهندسى الذى لا يقدر انصار القديم سواه . انما هو كما يقول الفرنجة روائى (romantique) يجرى عليه بعض شعراء العصر

وهذا الشعر الوجدانى بطبيعته ، الغنائى بلهجته ، ينقسم الى خمسة اقسام كبرى . وهى :

١ - شعر المجاملة

٢ - الشعر العائلى

٣ - الشعر الغزلى

٤ - الشعر الاخلاقى

٥ - الشعر الدينى او الابتهالى

ففى الاقسام الثلاثة الاولى تلقت التأثر من الناس فأعادته اليهم نشيدا . وفى القسمين الاخيرين تلقت التأثر من مختلف الجهات فخاطبت نفسها وناجت نبيها الكريم مبتهلة الى العزة الالهية



## شعر المجاملة

لقد حلت المجاملة عندنا مكان الصدق في امور جمة لخلو  
محافلنا الاجتماعية من النقد المنصف الحصيف . فان نحن  
استنكفنا هذا التطفل من المجاملة ، وتأففنا لادمان معالجيها  
والراضين بها ، فهذا لا يحول دون التقرير بأنها في حالتها  
المعتدلة علامة للثقافة النفسية . المرء يعيش في بيئته فعليه  
ان يقلع عما يزعج بنى جلده لغير ما سبب . لذلك هو  
يضبط خوالج نفسه ، ويحاول الشعور معهم والتلطف اليهم  
لا خبثا ولا كذبا بل تمرنا على الغيرة بتهذيب ذاته في فن  
الارضاء « والدوزنة » ، واقتبال التضحية الصغيرة التي  
تسهل بالمران وتتحول شيئا فشيئا الى سرور وقتى مأنوس  
استبدل كلمة « نرجو تشريفكم » في دعوة بكلمة « احضر  
عندنا يوم كذا ساعة كذا » . تعلم ان الصراحة ليست هي  
الحشونة ، وتقدر المجاملة المعتدلة وآداب اللياقة . وتعلم  
لماذا هذه الملح في حالة الدقة والاحكام تلقى في اجتماعات  
الانس رونقا سطحيا مستحسننا

اما عائشة فلديها الوقت الكافي لتتفنن في تنميق الدعوة  
على هذا النسق :

لقد من الاله لنا بسعد      واشرقت الليالى بالامانى  
وقام الفوز فى الدنيا خطيبا      ودق الحط اوتار المثانى  
وانتم للمنى عين وروح      ومشكاة السرور مع التهانى

لكم صفو المسرة في انتظار فمّنوا بالتعطف والتداني  
اجيبوا دعوة الداعي فأنتم فسرّائد والمجالس كالجمان  
وفي الوليمة يقرأ المدعوون هذه المجاملة الاخرى على لوحة  
كبيرة :

قد من فضلا بالصفاء الفتح  
وضياء توفيق الهنا مصباح  
والسعدا قبل والعناية ساعدت  
دامت لنا بسرورنا الافراح  
وتطرز اسم احد رجال الانشاء :  
سلام الدرايا غواص غالى  
فبعه بما يسام ولا تبال  
لقد جاد الاله لنا ببحر  
يجود بداره قبل السؤال  
وتحيى دولتو حسين باشا « أليس هو السلطان حسين  
بعدئذ ؟ » لقدومه من السفر فتقول :  
لاحت شمس السعد بالاقطار  
وجلّت عروس الانس للابصار  
واستبشرت مصر المنى بقدومه  
حسن الخلّائق غرة الانوار  
لو للديار فم لقالت مرحبا  
بشرى بنير عزتى ومدارى  
قد اقبلت بالبشر دولتك التى  
هى تاج آمالى وعين فخارى  
اكثر المجاملة فى شعرها لامتداح الخديوين « عشر قصائد

تقريباً . هالك كلاماً حلوا رناناً في تهنئة الخديو بالعودة :  
كللت تاج البدر قرباً بالشرف  
مذ حل في مصر ركابك وانعطف  
طربت بمقدمك السنن بلطفه  
مصر السعيدة والسرور بها هتف  
وازينت بكر الحبور واصبحت  
مجلوة بين الرفاهة والترف  
وتجملت مصر بما جاد الهنا  
ورخيم مطربها على عود عكف  
في منتهى اللطف هذان البيتان لا سيما الثاني . وفي الشطر  
الاخير نفحة شعرية منعشة . وهذا مثله  
وتراقصت مهج النفوس لبشرها  
كبلابل غردن في روض انف  
اضحى يقول بسعد بابك نيلها  
اقبل على بحر الوفاء ولا تخف



أكل هذا محض رغبة في المجاملة والارضاء ؟ بل فيه  
بعض الصدق . ان للأعياد العمومية والاحتفالات بهجة  
و « جوا » ينفث في الجماهير فكرة ويبث فيهم توقعا .  
ويخلق في ذوى الشعور المتيقظة مختلف العواطف . فكيف  
لا تتأثر المرأة المحجوبة اذ تمر في مركبتها المسدولة الاستار  
بين معالم الزينة والالوية والانوار وصفوف الجنود وقرع  
الطبول ؟ كيف لا تهتم بالذات العلية التي تهتز البلاد لحركاتها  
وهى القرية اليها بمنصب ابيها ، المدينة لها بعض الشيء

بمرتبة أسرتها ، الملمة ببعض احوالها بالاختلاط بنسائها ؟  
فكما تهنيء خديويا بالعودة تهنيء الخديوى التالى توفيق  
باشا بالتولية :

تيجان يمن الصفا ضحت تكللها  
يد السرور بفوز دائم بهج  
والسعدا شرق نورا والسما غنيت  
عن نورا قمارها والارض عن سرج  
تقلد النير الدرى تولية  
ضياؤها سوى الاصلاح لم يهج  
هذا الخديو الذى قرت بموكبه  
عن الزمان وقالت للهدى ابتهج  
يسوس بالعدل والانصاف أمته  
ويبذل الفضل والجدوى لكل رج  
والدهر رنم بالبشرى يؤرخه  
يا مصر قد زانك التوفيق بالبلج  
( سنة ١٢٩٦ ٣٤١ ١٠٤ ٧٨ ٦٢٧ ١٤٦ )  
واذ يمر الخديوى بينها العسل تنظم هذه الابيات لتكتب  
على لوحات الزينة :

البشر اجرى بينها انهر العسل  
والنصر اضحى بتوفيق السعد دجلى  
وافى «الخديوى» فأضحى نور بهجتها  
كالبدور كالتم أو كالشمس فى الحمل  
ما ثم ارض سقاها غيث مقدمه  
الا وفازت بزاهى الانس والجلد



تهلل القطر بشرا من زيارته  
وايقن القوم حسن الفوز بالامل  
وحين مولد ولى هذه :  
قرت عيون للسعادة بالصفاء  
مذ بشرت بسمى عم المصطفى  
عباس اشرق بالمعالى نجمه  
من نير التوفيق سعدا اشرفا  
رقصت بمنبتها الفصون بشارة  
بقدوم من بوجوده دهرى صفا  
قالت ميامن بشره تهن الورى  
فالامن والتوفيق فوزا اخلفا  
الا ان هذه اللهجة تصطبغ بالجد فى قصيدة الترحيب  
بالخديوى بعد الثورة العراقية :  
الله اكبر يوم آب عزيزنا  
عيد كبير زانه التشريق  
وافى الخديوى الفخيم المرتضى  
رب الفخار عزيزنا توفيق  
رفعت له الاعلام يوم قدومه  
وبدا لها فى الخافقين خفوق  
وسرت بأرجاء البلاد مسرة  
من عطرها روح النسيم عبيق  
عزفت له الافراح الحان الهنا  
وبدا يشير لحسنها التصفيق

ومن ثم تمضى فى انكار تلك الثورة التى لم يرض عنها  
الخدوى :

ولك السيادة ليس ينكر أمرها  
الا عديم العقل أو زنديق  
قدحت بأكباد العدا نار الغضا  
واشتد ما بين الضلوع حريق  
كفروا بأنعم فيض جدواك التى  
تربو على قطر النداء وتفوق  
ظلموا نفوسهم بخدعة مكرهم  
والمكر يصمى أهله ويحيق  
فرقت شمل جموعهم فمكانهم

فى الابتعاد وفى الوبال سحيق  
هذه مصارحة خطيرة وهى الغمزة السياسية الوحيدة فى  
كتابات التيمورية اذا استثنينا مشايعتها للعرش فى قصائد  
الثناء . مشايعة فيها تتلخص عاطفتها « الوطنية » وبها  
تحب جو « مصر السعيدة » ونيلها الفياض ، وألحان أفراحها .  
تريد لمصر الخير والصالح والهناء بواسطة الخديوى الذى  
ترى فيه أقدر عامل على ذلك ، ليس لانه مصلح أو خير  
بطبيعته ، بل لانه صاحب الأريكة . فكما انه فوق رعاياه  
فى المكانة فهو كذلك لهم فى الصلاح والعدل المثل الأعلى  
والتيمورية فى هذه « المحافظة » السياسية متفقة  
وطبيعتها . لاننا رأينا فى ما مضى وسنرى فى الباقي من  
آثارها انها غير ثائرة

## شعرها العائلى

أليست المجاملة وحب التساهل لتيسر العلاقات بين  
أعضاء البيت الواحد ، وتحل من المشاكل ماقد لا يفلح فى  
حله الصراحة والعناد ؟

تكاد تتوحد العاطفة والمجاملة فى بعض شعر عائشة  
العائلى . لأن الملاينة تتخذ لهجة أقرب الى النفس فى مثل  
ترحيبها هذا بولادة شقيقها :

غنى فؤاد. الأم أهلا بالذى  
مذ جاء اشرقت المنازل بالهنا  
وفى قولها يوم بدأ يقرأ ، كأنما هى رأت فى المستقبل  
المرتبة العلمية التى هو بالغها :  
لاح السعود وأسفر التوفيق

وتلا لنا سور العلا توفيق (١)  
رقم الفقيه له على لوح الهدى  
أقبل ، فانك للنجاح رفيق  
وفى وصف هدية بعث بها خطيب شقيقها الى عروسه :  
تهاديننا الزهور فعطرتنا وللنسمات تعطير مضاعف  
سألنا ما الذى أزكى شذها  
فقل لأنها نفحات «آصف» (٢)

---

( ١ ) اسم شقيقها تيمور باشاهو أحمد توفيق تيمور ، ثم تفلب اسم  
أحمد ، وبه عرف ( ٢ ) هو آصف باشا

وقولها في ختان ولدها :

دقت له العلياء دف سروره

لما زها عن ثغره البسام

وغدت تعوذ نجمه لما بدا

ودعته في افق المسرة سامي

رمقته أحداق الوري من بشرها

وصنعت له الارواح في الاجسام

هذا شعور الأم . ولأنها ترمق ولدها بالبشر ، وتصفو له

روحها، فهي لا تقبل في الثناء عليه بعدئذ معارضة ولا انكاراً

فتكتب اليه مرة تطلب كتاب « درة المختار » :

طروس حررت فوراً فحاكت نسمة الاسحار

سأودعها تحيات بها عرفي الصبا قد سار

الى عالي المسكانة من سما في المجد والمقدار

له همم اذا ظهرت توارت دونها الاقمار

وارجو من معاليكم سريعاً درة « المختار »

وتكتب اليه مرة أخرى مشتاقة صادقة ، وفي السطر

الاخير مثال من ذكرها لاسمها أما الشطر الاول فمر الد

أحاديث الامومة :

قلبي لبعذك لم يحمد مجاورتي

وفر نحو حبيب في حشاه ربي

قل بطلعتك الغرا وعزتها

واحكم بما ترتضى متعت بالارب

من غير قلب أتبقى روح عائشة

لا والذي زان هذا المجد بالادب

وأصدق صورة من شعرها العائلى فى المراثى ، ولا سيما  
مرثاة ابنتها المحبوبة توحيدة وهى القصيدة الوحيدة تقريبا  
التي يذكرها الناس من شعرها زاعمين أنها خير ما نظمت  
التيمورية ، وحكمهم فى هذا حكمهم فى كثير من الشؤون :  
يقرون رأيا ما ، ويعززون ، ويتعصبون له قبل الاطلاع على  
سواه ، بروح التساهل ، وقبل أن يصرفوا ولو دقائق فى  
البحث والمقارنة

وأضيف الى هذه المراثة مرثاتها للشيخ ابراهيم السقا  
الذى يلوح كأنه عضو من عائلتها المعنوية . فتتوجع  
لفقده :

الدهر أبدل راحتى بعناء  
واعتاض صفوتنعمى بشقاء  
شجن عرى الاسلام بالظما الذى  
حل العرى بضماثر العلماء  
أضحت حصيدا أرض أزهرنا التى  
كانت به كالدوحة الخضراء  
تشكو الاوام وما بها من مطفىء  
مذ غاب سقاء العلى بالماء  
قلبى عليه غدا كجمرات الغضا  
والوعتى من حره وشسقائى  
فلأذرفن أسى عليه مدامعى  
ما دمت عائشة بخدر فنائى  
اسمها من جديد ، يصحبه وصف كارب من التحجب اذ  
تدعو خدرها « خدر فنائها »

أما فى مرثاة والدتها فتطلب للراحلة الرحمة ، وتهنىء  
القبر بنزيلته المخدرة التى لم تسفر لغريب :

يا قبر ، فاهناً بالتى أحرزتها  
هى درة بالدرج لاحت تسطع  
يارب ، فاجعل جنة المأوى لها  
داراً بطيب نعيمها تتمتع  
واسكب على حصبائها سحب الرضى  
فضلاً، وإن تك قد سقتها الأدمع  
يهناً لأرباب النعيم نعيمهم

طوبى لمن من نهرهم يتضلع  
وبعد هذا الامتثال تنتفض صائحة بالموت الذى فطر  
حشاشتها . إلا أن صيحتها تظل استرحاماً . وما أبلغ  
وصفها الردى « بمنهل التشيت » على قياس النظرة  
الدنيوية التى تختبر به الفراق المر ، دون الأمل الروحى  
الذى يرى فيه وسيلة الاجتماع والاتحاد

يامنهل التشيت، حسبك ما جرى  
فعيوننا قد أقسمت لا تهجع  
ذهب الأحبة واستقل ركابهم  
يا ليت روحى ودعت أذ ودعوا  
يا ليتهم طلبوا الفداء فهذه  
روحى ولكن « ليت » ليست تنفع  
وفى رثاء شقيقتها :

أحببتى ، كيف الرضا بتشتت  
قد ضرر بالآخوان والأولاد

وفي هذه المراثاة ترتفع التيمورية لحظـة الى ما فوق  
الندب والثناء :

يا من أتى للقبر يقرأ طرسه  
مهلا ، فليس كتابه بمسداد  
وأعد له نظـرا فان حروفه  
كتبت بذوب العين والاكباد  
وفيها هذا البيت الذى يسجل بداهة وجوب انحلال  
الصور الكونية ليتسنى لها أن تتألف وتتشكل مرة أخرى .  
فبتم بذلك ناموس من أكبر النواميس فى الوجود :  
وجدت ، وأعدمها الزمان حياتها  
ما أقرب الاعدام للايجاد !



تولد المرأة أحيا صنوف التوليد المحسوس . فأحوال  
حياتها جميعا تنهيا لهذه الوظيفة وتتجه نحوها اتجاه الانهار  
الى البحر . ولقد شبهت الام دواما بالطبيعة ، تلك الام  
العظمى . وكان ما يرمز الى أمومة الطبيعة ووظيفة التوليد  
الرائع فيها ، أنشئ فى جميع أديان الاقدمين . فايزيس  
المصريين « تلك الالهة التى بدأت التوليد الالهى ، الام  
الالهية التى ولدت جميع الاشياء » واللواتى قمن مقامها  
فى الميثولوجيات الاخرى ، يرمزن الى المرأة القادرة بأمومتها ،  
المثلة الطبيعية بوظيفتها ، القائمة حلقة مغناطيسية بين  
الحياة والحياة

فما هو شعورها يوم ترى مخلوقها جامدا فى حضنها  
هامدا ؟

لا عجب أن يبدو الكون عندئذ متهدما في نظر الشكلى ،  
وأن ينقلب الروض قفرا ، وأن يغشى النور ظلام  
ولا عجب أن يكون غمها الأكبر الذى لا يحتمل أن يظل  
هذا الكون المتهدم لها عامرا لسواها ، ويظل هذا النور  
منتشرا ينير الناس ويفرحهم فى حين يدلهم الجو حولها  
أى مأساة هذه التى تتصدع من جرائها الخليقة ؟  
أغمضت توحيدة عينيها ، فكل الحياة عند عائشة  
سواد وتهدم وتفجع وتناقض اليهم  
ستر السنا ، وتحجبت شمس الضحى  
وتغيبت بعد الشروق بدور  
ومضى الذى أهوى وجرعنى الاسى  
وغدت بقلبي جدوة وسعير  
طافت بشهر الصوم أكواب الردى  
سحرا وأكواب الدموع تدور  
فتناولت منها ابنتى فتفجرت  
وجنات خد شأنها التفسير  
فدوت أزاهير الحياة بروضها  
وانقصد منها مائس ونضير  
يا روع روحى ، حلها نزع الضنا  
عما قليل ورقها ستطير



من أرق قصائد تنسن الانجليزى وأدلها على شاعريته  
الحنون قصيدة « ملكة مايو » وهى عادة جرى عليها



الانجليز في بعض المقاطعات أن يختاروا كل عام من بناتهم  
ملكة للربيع

فاذا شئت أن تقف على مثال من توارد الخواطر فاقرأ  
قصيدة تنسن المذكورة The May Queen وقابل بينها وبين  
مرثاة التيمورية لابنتها ضاربا صفحا على الاتساق التام  
في قصيدة الشاعر الانجليزى ، وعن نقيض ذلك في قصيدة  
الشاعرة المصرية . تجد العاطفتين تتلامسان في غير موضع .  
واذكر ان عائشة كانت تجهل الانجليزية، وان هذه القصيدة  
لم تنقل في عصرها الى العربية . واظنها لم تنقل بعدئذ وقد  
اكون مخطئة

فتاة تنسن تقول مودعة والدتها ساعة الموت : (١)

You'll bury me, my Mother, just beneath the hawthorn shade,  
And you'll come sometimes and see me where I am lowly laid,  
I shall not forget you, Mother. I shall hear you when you pass,  
With your feet above my head in the young and pleasant grass.  
I have been wild and wayward, but you'll forgive me now ;  
You'll kiss me, my own Mother, and forgive me ere I go ;  
Nay, nay, you must not weep.

و « توحيدة » تقول :

والقبر صار لغصن قدى روضة  
ويحانها عند المزار زهور

---

( ١ ) « ادفنونى يا أماه ، فى ظل أشجار الزعرور  
« وزورينى أحيانا حيث أنا متوارية  
« لن أنساك يا أماه ، وعندما تمرين  
« سأسمع وقع خطاك على الحشيش الغض اللطيف »  
« كنت شرسة عنيدة الا أنك الان تسامحينى  
« قبلينى يا أماه : وسامحينى قبل أن أمضى  
« لا ، لا . لا ينبغي أن تبكى »

وتقول :

أماه ، قد عز اللقاء وفي غد

سترين نعشى كالعروس يسير

وسينتهى المسعى الى اللحد الذى

هو منزلى ، وله الجموع تصير

قولى لرب اللحد » رفقا بابنتى

جاءت عروسا ساقها التقدير

وتجلدى بازاء لحدى برهة

فتراك روح راعها المقدور

اماه ، لا تنسى بحق بنوتى

قبرى لئلا يحزن المقبور

فتاة تنسن تذكر حبيبها فتقول :

And say to Robin a kind word, and tell him not to fret :

There's many worthier than I would make him happy yet.

If I had lived—I cannot tell—I might have been his wife :

But all these things have ceased to be ; with my desire of life.

وتوحيدة لا تذكر اسما ، انما تشير الى الزواج الذى كان

قريبا لولا الموت :

---

( ١ ) « قولى لروبن كلمة مواساة وقولى له أن لا يحزن

« كثيرات غيرى خير منى قد يجعلنه سعيدا

« لو عشت لربما كنت أصير له زوجة

« الا أن جميع هذه الاشياء تلاشت مع رغبتى فى الحياة »

اماه ، قد سلفت لنا امنية  
يا حسنها لو ساقها التيسير  
كانت كاحلام مضت ، وتخلفت  
مذ بان يوم البين وهو عسير  
عودى الى ربيع خلا وماثر  
قد خلفت عنى لها تأثير  
صونى جهاز العرس تذكارا ، فلى  
قد كان منه الى الزفاف سرور

وكما تطلب فتاة تنسن الصلاة ، وتبارك الكاهن الذى  
أسر اليها بكلمات الرحمة والسلام فافهمها عذوبة الغفران ،  
وحبيب اليها الموت بعد ان كان مخيفا ، واكد لها ان المسيح  
الذى « مات لاجلها سيبلغها السماء » كذلك تطلب توحيد  
ان يزار قبرها وان تتلى الصلوات على روحها لتحظى برحمة  
الرب الغفور :

اماه لا تنسى بحق بنوتى  
قبرى لثلا يحزن المقبور  
ورجاء عفو ، او تلاوة منزل  
فسواك من لى بالحنين يزور  
فلعلما احظى برحمة خالق  
هو راحم ، بر بنا ، وغفور  
الأم عند تنسن لا تسمعنا صوتها . اما عائشة فتنتحب  
وتعود فتبكيها :

بنتاه ، يا كبدى ولوعة مهجتى  
قد زال صفو شأنه التكدير

لا توصى ثكلى قد اذاب وتينها  
حزن عليك وحسرة وزفير

قسما بغض نواظر وتلهفى  
مذ غاب أنسان وفارق نور  
وبقبلتى ثغرا تقضى نحبـه

فحرمت طيب شذاه وهو عطر  
والله لا اسلو التلاوة والدعا  
ما غردت فوق الغصون طيور

كلا ، ولا انسى زفير توجعى  
والقد منك لدى الثرى مدثور  
ابيك حتى نلتقى فى جنـة

برياض خلد زينتها الحور  
انها تؤمن بالخلود ، لذلك يعقب تفجعها الخضوع ، وبيننا هي  
تقول بلسان الجسد :

قد كنت لا ارضى التباعد ساعة  
كيف التصبر والبعد دهور ؟  
ولهى على « توحيدة » الحسن التى

قد غاب بدر جمالها المستور  
اذ بها يتجه انتباهها الى ما وراء الموت فتذكر ان الفراق  
الطويل والانفصال المحسوس لا يجردانها من فخر الامومة  
واغتباطها . فتقول بامثال حزين وقد نما املها بالاجتماع  
المنتظر :

هذا النعيم به الاحبة تلتقى  
لا عيش الا عيشة المبرور

وتشكر الله على كل حال :

قلبي وجفنى واللسان وخالقي

راض وباك شاكر وغفور

ابنتها ان فقدت بها « كبدها ولوعة مهجتها » فأنها رغم ذلك، الفتاة الصغيرة التي لاتستطيع ان تكون لوالدها الحصن الحسى والمساعد الذى يخفف الاثقال ويروج الأعمال، صدر والدها هو لها ذلك الملجأ فى الحزن واليأس ، ومن قلبه التعزية ومن قدرته المعونة فيوم تفقده تفقد الشاعرة هذه الشفقة التي تلذ لها من أبيها ، وتذلها من الناس ولهذا تقول فى رثائها له :

يا حسرة أبنته اذا نظرت لها

بمماته عين من البأساء

يا كنز آمالى وذخر مطالبى

وسعود اقبالى وعين شفائى

يا طب آلامى ومرهم قرحتى

وشذاء زوحى ، بل ونهر غنائى

أبتاه ، قد جبرعتنى كأس النوى

يا حر جرعتى على احشائى

وهذا الانين يستحضر لذاكرتى انين ابن أخيها المرحوم

محمد تيمور فيما بعد عند ضريح والدته فى ساعة غم

متفجع قانط :

اماه ، قومى واسمعى امباه ، مالك لا تجيبى ؟

ارأيت دمع محاجرى وسمعت يا أمى نحيبى ؟

هل راع قلبك ما لقيت من النوائب والكروب ؟

أن الوجود صحيفة ملأى بأسرار القلوب  
خلفتني للهم فيه وللشدائد والخطوب  
أما ، أنى قد طرقت حماك في اليوم العصيب  
أبكى على سعدى كما يبكى الغريب على الغريب  
أفنى الغرام تجلدى وفقدت فى أهلى طبيبى  
هذا جناه أبى على وما جنيت على حبيب  
والفرق بين التيمورية وابن أخيها فى هذا الانتحاب ان  
الشاعر الفتى همه الشكوى وطلب الشفقة اذ ليس من  
يسمع له ويواسيه غير الأم فى قبرها

أما عائشة فتعود الى انتباه لطيف فى حسرتها ، وهو  
دليل رقة نسائية حلوة ، تعنى برضى والدها ميتا وحيا .  
وفيه كذلك دليل على الاثر الذى تركه الوالد الصالح الحكيم  
فى حياتها

يا ليت شعرى ، حين ما حل القضا  
هل كنت عنى راضيا أم نائى ؟



أسمعت القصب يشدو ؟  
ذلك القصب الشرقى الساذج الذى سبق شدوه جبروت  
الفراعنة وجلال الاهرام وكتمان الهياكل - اسمعته يشدو  
تحت النخيل على ضفاف النيل عند حلول الشفق ؟  
لكأن شدو عائشة شدوه

انها تجرب مزارها فى المجاملة ، وتنتحب فيه بالرتاء ،  
لتبلغ منه اشجى قرار واحر زفير فى شكايات الغرام . وتسمو  
به بعدئذ مرفرفة كالالحن المجنحة ، فى الابتهاال الى المهيمن  
على دوران الاكوان وحظوظ بنى الانسان

## الفصل السادس

### أشعارها

في الغزل . والأخلاق . والدين





## شعرها الفزلى

«الحب عارض فى حياة الرجل ، ولكنه حكاية حياة المرأة»  
كلمة شهيرة قالتها امرأة من أنبغ نساء العالم فى فيض  
عاطفتها واتساع تفكيرها وفى مقدرتها الادبية، هى مدام «دى  
ستيل» الفرنسية التى نالت شهرة غير مختلصة ، ومجدا  
مستحقا ، واعجابا توافق وعبقريتها النادرة . وقد عاشت  
تلك المرأة الممتازة ، عمرها وعواطفها تذوب جوعا ، والظما  
الى الحب الهائىء يبرح بها ، ولم تفهم معنى السعادة ، على  
قولها ، الا فى الحب المتبادل الذى تم لها فى الاعوام  
الاخيرة من حياتها

المفروض أن تسير عاطفة الحب عند المرأة سسیرها  
الطبیعی ابتداء بحب الوالدين ، الى حب الاخوة والاخوات،  
الى حب الاقارب والاصدقاء ، ثم يتجه الحب فى حینه الى  
الخطیب الذى تطلب فيه المرأة طبعاً الحبيب ، ثم حب  
الزوج والولد والعائلة الجديدة بشتى فروعها

وبرغم أن هذا الحب نسیج حياة المرأة ، فان الرجل  
الذى اعتاد اذلالها باسم القوة والحصانة ، سد فى وجهها  
منفذ الانتباه لعواطفها المشروعة ، وانكر عليها الافصاح عما  
ينبىء بأنها ذات يقظة مستقلة . وكل ما اقتحمته  
فى عالم التعبير خلال العصور المظلمة يسكاد

يتلخص في وصف النبات والحيوان في حكايات قصيرة ،  
ولم تنظم الا الاناشيد الدينية والصلوات الروحانية ، فاذا  
خرجت من ذلك فلتصوير حياة الرعاة وعاداتهم ومرحهم  
في عيشة الخلاء ، أما النساء العربيات في الجاهلية وفي صدر  
الاسلام فلم ينظمن - على ما أعلم - الا في المدح وفي الرثاء  
وما اليهما . وقليل ما ينسبون من شعر الغزل والنسيب  
الى بعض الشعراء

ولو اننا رجعنا الى أوائل القرن الماضي - وهو عهد  
مدام دي ستايل نفسها - يوم أنشأت المرأة في الغرب  
تنزع الى تحرير فكرها واطلاق براعتها ، وقابلناه بعهد  
عائشة والمرأة حبيسة خدرها وراء الحجاب ، لوجدنا شاعرتنا  
في طليعة نساء العهد الجديد المتعرفات حقهن في حرية  
العواطف ومشروعيتها ضمن حدودها الطبيعية ، هي في  
طليعتهن ، ليس في الشرق فقط ، بل في العالم المتمدين  
كله



لقد قالت الكثير من شعرها الغزلي محاكاة وتقليدا ، كما  
اعترفت بذلك في تصدير بعض أبياتها حيث تجد : «وقالت  
متغزلة في غير انسان والقصد تمرين اللسان » . ولكن ،  
أتكون الابيات التالية في بساطتها «لتمرين اللسان» كذلك ؟

أشكو الغرام ، ويشتكى	جفن تعذب بالسهر
يا قلب ، حسبك ماجرى	أحرق جسمي بالشرر
رام الحبيب لك الضنى	لم ذا وأنت له مقر ؟
لكن تعذيب الهوى	ما للشجى منه مفر

ويبدو شعرها في اصدق لهجائه عندما تذكر هذا السمر  
الذي يضرمه الشوق ( وكثيرا ما يذكره الصمد في بعض  
الامزجة الى حين ) وهي تستوحيه في أكثر غزلها :  
حر التهابى ووجدى واحترق دمي  
بفيح وادى الغضا عن سواك خفى  
هاكه في هذا الخمس الذى سمعتهم ينشدونه في سورية:  
ظبي ، في قلبى عليك حرارة  
تطفى لظاها - ان سمحت - زيارة  
حلو الرضاب ، أفي الوصال مرارة ،  
أم في التفاتك للشجى خسارة  
وجميع ربحى في الهوى انفقته  
ومن مربعاتها :

لما نأى عنى وبان صددوده  
والقلب أصبح لا يفيق عييده  
ملك الهوى رقى وحق وعييده  
والحب خط بالجيباه قديم  
بهذا الشطر الاخير هي تردد الفكرة الشائعة في الشعر  
العربى ، وهذه الفكرة حقيقة محسوسة ، فعواها ان بين  
جماهير الناس أشخاصا خلقوا للحب وكانوا مفتورين عليه  
أكثر من غيرهم ، وقد قدر على أولئك الأشخاص أن يعرفوا  
بعضهم البعض وان يبحث الواحد منهم عن الآخر، السعادة  
أم للشقاء ؟ سيان ! وانما للحب وفي سبيل الحب على  
كل حال . وتمضى عائشة في اتمام مربعاتها ، وكلها غنائية  
تجمع بين بساطة اللفظ وسهولة المعنى وفتنة الفرام  
الضرورية لتوقيع الانشاد :

يا ليل ، ها انا فيك ساه ساهر  
ولعزة المحبوب شك شك شاك  
يا ليل ، قد أيقنت أنك كافر  
اذ لم يكن لى من دجلك رحيم

يا ليل ، انك فى الفعال منافق  
هذا تسسهده ، وذاك توافق  
واذا لضيم ان فيك العاشق  
ضاعفت شكواه وانت بهيم

وهذا الخطاب لليل يذكرنى بأبيات لابن أخيها ، المأسوف  
عليه محمد تيمور الذى رأى فى الليل عكس ما رأت فخاطبه  
مطمئنا اليه شاكيا غدر الناس :

انا ، يا ليل ، اناجى	منك سلطانى الرحيم
انا فى الدنيا وحيد	ولى الناس خصوم
راقهم ، ان جدد امر	برق غدر لا يدوم
ورأيت الغدر نارا	ورأوا فيه النعيم
هدموا بنيان ودى	وانمحت منه الرسوم
ومليك الليل بر	هو لى ام رءوم
وهو لى خل امين	ولافسكارى نديم
انا ، يا ليل ، اناجى	منك سلطانى الرحيم



ارتكبت قبل اليوم جريمة الصراحة اذ قلت ان الخيال  
الشعري عندنا من الفقر بحيث ترى المعانى نفسها مكررة فى  
كل جيل بنفس الالفاظ القديمة . وقد بحث السادة

الشعراء عن مزيد من القيسود فاهتدوا الى مايسمونه  
« المعارضة » التى تفرض عليهم التزام البحر والقافية كما  
مهّدوا بالتزام اللفظ والمعنى مع شىء من التبديل فى الوضع !  
فهل ، بعد هذا ، من لوم على عائشة اذا هى وقفت عند  
معالم الغزل المألوفة التى قصرت فى الكثير من شعرنا على  
التشبيب بالعين والحاجب والخال واخواتها ؟ وشهدت عائشة  
جميع الاجيال السالفة تلوم العواذل راجية ان يرد كيد  
اللاحى الى نحره . ففعلت هى فعلتهم جميعا فلامت العواذل ،  
راجية ان يرد كيد اللاحى الى نحره . وتغزل الشعراء  
بالخمرة ، وزعم المتصوفة منهم انهم يرمزون بها الى الحب ،  
واحيانا الى الحب الالهى ، فعلام لاتتحداهم عائشة ؟

جهل العواذل ماتريد بشربها نفيى وما تلقى من السكرات  
وتسلينا عن جفوة أم صبوة لفؤادى المضنى من الحسرات  
شتان بين ظنونهم وسرائرى الله يعلم منتهى غاياتى  
كذلك تحدث الاندلسيون فى شعورهم واصطناعهم تفهم  
اسرار الطبيعة وتأويل معانيها ، فوصفت حركات حدثت  
للزهر وللماء لان المحبوب ، الذى تسميه التيمورية بالاسم  
الطامى فى الشعر العربى ، اى الفصن ، بدا فى اروض .  
فاهتز لظهوره كل ما استطاعت الفاظ الشاعرة ان تهزه من  
الموجودات . فاذا بها تتساءل :

ان كان ذلك حال الزهر من عجب

فكيف حال اخى وجد واشواق ؟

كل هذا العمل عندها وعند من قلدهم ، بل عند  
الكثيرين من كتاب الغرب ، كان مقدمة طويلة لعهد  
« الرومنترم » ، أى عهد دخول الشعراء والادباء الى نفوسهم

يلمسون جراحهم بأيديهم ويستوحونها ، ويتعرفون حالاتهم النفسية فيتمكنون من النظر الى الطبيعة تلك النظرة النافذة الرائعة فيكتنهم فيها مغرى المعانى ويرون فيها فائن الصور والالوان فى الحزن وفى الابتهاج جميعا . وما ذكر الاحساس بالطبيعة ونزعة الرومنترزم ، أى النزعة الوجدانية الصميمة فى الادب ، الا ذكر جان جاك روسو موجد تلك النزعة فى آداب الغربية . فسرت من بعد الينا ، وتعلم الجيل الجديد من شعرائنا تعرف ما فى نفوسهم وما فى الطبيعة من تغير وتنوع فى الظواهر وفى الخوافى . بيد ان الرومنترزم ، ككل شىء آخر فى هذا الكون ، أفسح المجال لمذاهب أدبية أخرى تطورت منه ومن فروعه فأصبح اليوم فى حكم « القديم » فى أوربا ، بينا هو وغيره من شتى المذاهب الادبية مازال شائعا عند الجيل الحاضر من شعرائنا وأدباؤنا



ولكن عودة الى التيمورية ! اننا رايناها متكلمة بلهجة الرجل ، وذلك راجع طبعا الى امرين اثنين ذكرتهما قبلا ، وهما :

أولا - عادة الضغط على عواطف المرأة واخراص صوتها . فكان أيسر لها أن تتخذ لهجة الرجل المصرح له بما حظر عليها

ثانيا - لأنها كانت مقلدة . فقد قلدت الرجل فى معانيه كما قلدته بداهة فى لهجته . الرجال أسساتدنا ومهذبونا ومكيفوننا ، عليهم نتلقى دروسنا ، وعن كتبهم وكتاباتهم نقتبس المعرفة ، وبذكائهم نستعين لصقل ذكائنا وانمائنا ، ومنهم نستلهم كل فكر عظيم وكل عاطفة جليلة . لقد احتكر الرجال جميع أنواع القدرة والابداع والتفوق ،

فما تكاد نفتح عيوننا واذهاننا حتى نرى جميع مناحى  
السلطان والسيطرة والنفوذ ممثلة فيهم . بيد أن الطبيعة  
النسائية تظهر عند عائشة بعض الظهور في الخجل الذى  
يشعر المرأة أحيانا بأنها صغيرة ضئيلة أمام من تحب ، كما  
يشعرها بأن هذا الرجل الذى اختارته هو الذى يملأ الدنيا  
حياة ويفيض عليها الرونق والنور :  
أنا المهربل بالأعداء من كفى

إذا التقينا ، وأنت الرائق الوسم  
وتظهر طبيعة المرأة ظهورا أتم في هذا الخجل الصريح :  
وهذه كلمات قادها شفق

إليك ، لولاه لم تبرز من القلم  
جاءت ، ومن خجل تمشى على مهل

تخاف عند لقاءها زلة القيد  
وقد يكون خير شعرها الفزلى وأصدقها فى القصائد التى  
قيلت خلال رمد عينها وبعد الشفاء منه ، يوم عادت الى  
مشهد النور ورؤية وجوه الاحباب . ومنها :  
بكعبة الحسن انسانا أرى فسلوا

عيني التى طالما ضلت من الغسق  
وخبرونى ، أنسانى صفا ودنا

لستهمسبام رماه البين بالارق ؟  
وما لبث أن عاودها الرمد فإنقلبت تشكو الظلام الذى هى  
فيه والالام والحرمان جميعا :

فوا أسفى على انسان عيني غدا فى سجن سقم واعتقال  
حجبت بسجنه عن كل خل وصرت مخاطبا صور الخيال  
ثم ترسل الامنية الواحدة المتضمنة أمانى أخرى :

فيا انسان عين غاب عنها وبذلنى به طول الملال  
عسى القاك مبتهجا ، معافى ، وأصبح منشدا «أملى صفالى»  
لتهنأ مقلتى بسنى حبيب بديع الحسن ، محمود الوصال  
وانظم أحر فى كالدرد عقدا به جيد الصحائف كان حالى  
ثم تصف ما تقاسى من العذاب فى الظلام والارق :

فكم أمسى بما ألقى حزينا وبين النوم معترك وبينى  
أبيت ومؤنسى الخفاش ليلا وحالى معه شر الحالتين  
فذاك بنور عينيه مهنى ولى أسف بحجب المقلتين  
وأبسط للظلام أكف بثى وأشقى لوعة بالظلمتين  
ترانى معرضا عن كل ضوء فهل خاصمت نور النيرين ؟  
يتأفرنى السنا فأفر منه كأن الضوء يطلبنى بدين  
وأجنح للظلام جنوح صب دنا لحبيبه بالسرقتين  
وجاء يوم شفيت نهائيا فمضت تنشد «أملى صفالى !»  
على نحو ما تمننت :

روحى بقربك قد نالت من الأرب  
ما ترتضيه ، فمرها فى الهوى تجب  
فضع يمينك فضلا فوق مهجتها  
تكف بالكف ما عانت من وصب  
لاتنكرن مسرايا الحب ان له  
فى الراحتين لراحات من التعب

هذا معنى آخر مقتبس كسائر معانيها ، إلا أنه فى الأصل  
ذا مغزى بعيد . ففيه إشارة الى مغناطيس اليد كم هو  
مؤثر فعال بين المحبين والأصدقاء ، حتى بين الغرباء الذين  
لاتنافر بينهم . وهو قاعدة علمية تقوم اليوم عليها ، أى على



مغناطيس لس اليد ، طائفة من تجارب التنويم المغناطيسى  
وكيف لا يكون لكف الحبيب هذا التأثير ، والحب محور  
الحياة ؟

صب لقربك بالحياة يجود  
أنى له بعد البعاد وجود

بختام طبع الحسن قد طبع الهوى  
فى قلبه « هذا هو المقصود »  
ولكن العواذل - لحاهم الله ! - عادوا الى الاصطياد فى  
الماء العكر ، بتعبير كتابنا السياسيين فى هذه الايام . فهل  
من انتقام اثم من رميهم بالكفر ؟

كانهم بعنادى عصبه كفروا ماحل فى قلبهم صدق واسلام  
اما وهناك ما يؤدى الى خيبة الامل وصد العاطفة ، فتسخط  
شاعرتنا ورغم الالم والمضض ، تجنح الى الاعراض والنسيان:  
غضضت نواظرى عن غصن قد

وعفت حنين قلبى ، وهو روحى  
فلو عقب الهوى قلبى ، وقالت  
اذن روحى اروح ، لقلت روحى !  
وافكارى تسوح لفرط شوقى  
فأطوى لوعتى ، واقول سوحى !  
لظبى قسد بكت عينى ، وقالت

انوح الى النشور ، فقلت نوحى !  
وذاك ليسله شرقا وغربا  
لنفحات الغبوق مع الصبح



كان الناس فى عصر عائشة يتلقفون الادوار والموايا ،

تلك الاغانى الشعبية التى يفهمها الجميع ويستلذونها بلا  
اجهاد ، لانها تخاطب الصق العواطف وتحدث عنها باللهجة  
العامية . وتلك الاغانى ، كمجموعة المغنى العربى القديم  
والحديث ، تكاد تنحصر فى شكوى الحب ، ولوم الحبيب ،  
ووصف جماله ودلاله ، وعبادة مانثر على وجنتيه من خال  
وشامة ، والتحرق من جراء هجره ، والابتهاال اليه والى  
الايام والقدر ليروا جميعا مايحسن صنعه لتسوية  
الامور . . . وقصائد عائشة الفزلية لاتعلو هذه الاغانى الا  
بكونها منظومة . لذلك سهل انشادها . لاسيما الرباعيات  
التى يغنونها فى سورية وفلسطين لبساطة معانيها وتراكيبها .  
كذلك سمعت ادوارا ومواليا تنشد فى اجتماعات الانس  
وحفلات الافراح ، ولم يدر المنشدون انهم بانشادهم يلحنون  
روح التيمورية . كما أن كثيرين منا عندما ينشدون « قدك  
أمير الاغصان » و « الحلو لما انعطف » وغيرها ، يجهلون  
انهم منشدون شعرا لاسماعيل صبرى باشا . وأن كثيرا من  
الادوار الشائعة هى من صنع أدباء كبار نحسبهم تحصنوا فى  
معاقل اللغة الفصحى مزدربين بالادب الشعبى البليغ .  
وهاك دورا من وضع عائشة :

حياتى بعد بعدك نوح      ووعسى ضيعك منى  
دانت انت الفذا للروح      وليه ترضى البعساد عنى ؟  
وغيره :

انا احب الحبيب      نفس الغرام روحى  
وصبحت اول صيب      الناس ترى نوحى  
فى القلب من جـوه      والسر هو هـوه  
وهذا من المواليا :

يا الف اهلا ، عليك الحسن اهو قابل  
وكل مضنى بحسن الامتثال قابل  
هاروت لحاظه اتى بالسحر من بابل  
كم من ضنى تاهت افكارو وقلبو داب  
ياقلب ، تقبل كدا ؟ قال لى نعم قابل



اشتهر كاردوتشى الايطالى بموهبته الشعرية وبموهبة  
النقدية معا . وكان يؤثر عنه كذلك ازدرائه بشاعرية المرأة .  
وله فى ذلك رأى سار مسير الامثال ، وهو ان اثنين عليهما  
ان لا يعالجا الشعر وهما : الكاهن المسيحى والمرأة . وكثيرين  
من الناس فى مواهب المرأة رأى لا يختلف عن رأى كاردوتشى  
ولست أدري هل قدر لهم ما قدر لكاردوتشى فحمله على  
تغير رأيه مما سجله بقلمه على نفسه فى اغتباط يوم وضع  
المقدمة لمجموعة الشاعرة الايطالية آنى فيفانتى . ليس  
اظرف من اندحار هؤلاء العظماء بعد تعنتهم فى بعض الآراء  
غير الناضجة ، ولا أصرح من اعترافهم بالخطأ اعترافا خلى  
من التحفظات والاستدراكات والمداورات التى تشغل جماعة  
من الكويتهيين وذوى المدارك المحدودة ، أولئك الذين كأنهم  
لا يفتأون يقولون : أعترف ، ولكنى لا أعترف . صحيح ،  
ولكنه غير صحيح . جميل ، وهذا مع ذلك غير جميل !

عدل كاردوتشى رأيه بعد مطالعة أشعار اليزابث براوننج  
الانجليزية ، ومدام ديبيورد فالور الفرنسية ، وآنى فيفانتى  
الايطالية ، مصرحا بأن لدى المرأة شيئا تقوله غير ماتنسخه  
عن الرجل . ولا عجب فى قوله بل العجب فى قول المناقضين .

لأنه مهما فخر الرجل بعبقريته التي نحبها. ونعجب بها  
ونستحثها فيه ، فهو لا يستطيع أن يزعم أنه الطبيعة البشرية  
كلها . لأن الطبيعة لم ترده أن يكون أكثر من النصف الواحد  
من الذات الانسانية المكتملة . فاذا به هذا النصف الشيط  
البارع الجميل الذي أوجد لنا ما نمتع به اليوم من محاسن  
الحضارة والثقافة . . . ومن الباقي الذي نشقى به وهو  
غير خير وغير حسن . . .

أما النصف الآخر فهو المرأة ، النصف الذي ظل الى اليوم  
مهملًا ، ان لم يكن مكموما مسحوقا . النصف الذي قد  
يذكر أحيانا بصفته غير موجود في ذاته ولا حق له على  
الحياة والحرية ، وكل الغرض منه هو اخراج النسل ليس  
غير . هذا الرأي شائع كثيرا ، بيد أنه لا يتناول الاقلية  
المنصفة من الرجال الذين هم في الحقيقة نبهونا الى نفوسنا ،  
ولهم الفضل الجزيل في تشجيعنا وأرشادنا ومساعدتنا

بدهى ان المرأة في بادىء الامر تقلد الرجل تقليد التلميذ  
للمعلم ، تقليد الصغير للكبير . بدهى أن تفعل ذلك في  
مجموعها المستيقظ . ولكن تتفقت من كل تقليد واحتذاء  
صاحبات العبقريّة منذ ظهور نزعتهم ، مشيلات سافو ،  
ومدام دي ستايل ، ومدام دي نواي معاصرتنا التي فازت  
العام الماضي بجائزة الآداب من الاكاديمية الفرنسية ، ومثيلدا  
سيراو التي يشبهها بول بورجيه ببلزاك الكبير في رواياتها  
المشعبة بحياة الشعب وبوصف عاداته وانفعالاته وآلامه

ان عواطف المرأة وتأثراتها شيء بشري مشروع . وبالمران  
تتعلم الاستسلام لطبيعتها النسائية والركون اليها في

الاهتداء الى التعبير ، بعد أن لجمت خوالجها قرونا طوالا .  
والصيحة التي ترسلها الآن ستفتح في ادراك البشر وفي  
آدابهم أفقا جديدا

اثبت هذا في ايمان وهدوء ، دون تحيز ولا تعنت  
انما نحن من الذات الانسانية الواحدة الجهة الماثلة ازاء  
جهة الرجل ، فنختبر اذن بفطرتنا ما لا يستطيع الرجل ان  
يعرفه ، كما أن اختبارات حضرته تظل ابدا مغلقة علينا .  
واذا قدر للمرأة المصرية ان تلج باب الشعر والادب وتمعن  
في المسير في ماوراءه من فسيح المسافات كان مرجع الفضل  
الى التيمورية التي نشرت أول علم في الجادة غير المطروقة ،  
وبكرت في ارسال الزفرة الاولى أيام كانت تكتم الزفرات  
وكان ارسال الصوت في عالم الادب يحسب للمرأة عارا  
وجريمة . ويوم ينمو الادب النسائي في هذه البلاد فيجىء  
حافلا بحياة فنية غنية ، ستظل أناشيد عائشة - هذه  
الاناشيد الساذجة - لذيذة محبوبة كترنيمة المهد القديمة  
التي هممت لنا بها أمهات أمهاتنا ، شجيرة مطلوبة كشهدو  
القصص القائل في ظل النخيل : ان وراء المشاغل والهموم ،  
يلبث القلب البشرى معذبا بظما لا يرتوى ، مثقلا بحنين  
لا يعرف الاكتفاء والنفاد . . .

## شعرها الاخلاقي والدينى

كنا فى الفصل السابق فى أنس وبهجة وكأنا فى ليلة من ليالى الاعراس . لان شعر عائشة الغزلى كان مستحضرا لنا نغمة القصب ، ونقرة الدف ، وشدو المغنى . أما هذا الفصل ، فانه سينتقل بنا من « مجلس الانس الهنىء » الى مايشبه خطبة اخلاقية . فكأنا اليوم نقول مع عائشة :

تركت الحب لآعن عجز طول ولا عن لوم واش أو رقيب  
ولا من روع زفرات التصابى ولا من خوف أجفان الحبيب  
ولا حذر الفراق وخوف هجر به تجرى المدامع كالصبيب  
ولكنى اصطفت عفاف نفس تقى بصفوه عين الارب

والواقع أننى لم أكن مخيرة فى انتقاء هذا الموضوع ، بل أنا مرغمة عليه بحكم سياق البحث وانسجامه . أما عائشة فتقول انها « اصطفت عفاف النفس » ولماذا ؟

وذاك لانى فى عصر قوم به التهذيب كالامر العجيب  
نستطيع أن نجعل هذا البيت حدا فاصلا بين مانظمته  
التيمورية للمجاملة والمحاكاة والرثاء وتبيان العواطف وبين  
مانظمته لتأدية رأى لها فى شئون المجتمع ، وتبصر فى أحواله  
وأخلاقه بين طوارئ الزمان وتقلبات الايام

ورأىها وتبصرها لاتتفرد بهما ، بل هما شائعان لاسيما  
بين الشرقيين . ولكن يهمنى هنا منهما ان شاعرتنا عمدت

اليهما وأخذت بهما ، ولو من وجهة سطحية . ان عائشة لم  
تتعمق أصلا في فكرة أو في عاطفة . بل كانت تكتفى بالناحية  
المطروقة وترضى لها بالتعبير المألوف . ولكن لائنسين أنها  
المرأة المصرية الوحيدة في عصرها التى أقدمت على ما لم تدرك  
أهميته يومئذ مئات الاوف من النساء ومن الرجال أيضا

ولقد المعت غير مرة في شعرها وفي نشرها الى ما بينهما وبين  
وسطها من عدم التفاهم . وهاكن أبياتا تدل على ما حاولته  
في سبيل التآلف والتفاهم ، في حين وسطها لم يبدل من  
ناحيته جهدا ولم يبد للملاقاتها اهتماما :

عقدت عزمى وهم حلوا عزائمهم  
وفي العزائم محلول ومعقود  
ما طابقوا حين لم يبدوا مجانسة  
ولا تشابه معدوم وموجود  
أبدى اثلافا ويبدون الخلاف ، وقد  
غدا لهم في جيوش الهجر تجريد  
وكم أقابلهم مستنجزا ، ولهم  
لسوء حظى ، في الاعراض ترديد  
لو للسعادة عين فى مساعدي

ما كان لى ساعد بالطوق مشدود  
هى تعنى ان السعادة لو شئت ان تساعدنا ما كانت  
أوجدتها مقيدة بقيود هذه البيئة ، خاضعة لظلم الوسط  
الذى يرهقها . وهنا نتأكد مرة أخرى انها لم تكن سعيدة .  
وسنفهم شيئا فشيئا أنها كانت تتألم من انفرادها الادبى ،  
وسط المجهود الذى تبذله فى رجاء ونشاط فيثوب عليها

مقاومة وفشلا . فاذا بها تلقى الينا بهذه النصيحة غير  
الجديدة :

لا تفرحن بدنيا اقبلت وصفت  
بكل ماترتضى ، واحذر عواقبها !  
وعلام هذا التحذير ؟ لان من صفت له الدنيا من ناحية  
تجهمت له من ناحية أخرى . لان الصفاء نفسه لا يدوم ،  
وقد لا يطول حتى ينقلب كدرا . فخير شيء وسط هذا  
التحول في العسر واليسر ، انتهاج طريق العفة والاستقامة  
والصلاح :

ما الحظ الا امتلاك المرء عفته  
وما السعادة الا حسن اخلاق  
وهي تعطينا نصائح أخرى لتشرح لنا قليلا ماذا تعنى  
بالاخلاق الحسنة : فمنها عدم الركون الى الملقين ، ومنها  
الاقلاع عن البخل وعدم التعلق بالمال والقناعة :  
رب الدراهم احصاها وعددها

في حصن اكياسه الفا على الف  
والحمد لله اذ عدى لمسبحتي  
وعن سواها ترانى قاصر الطرف  
ومنها حفظ اللسان ، لاننا جميعا بشر تشوهنا العورات :  
احفظ لسانك من ذم الانام ودع  
امر الجميع لمن امضاه في القسدم  
معايب الناس لا يكبرن عن غلطى  
اذا نمت بها في محفل الهمم  
ومنها صيانة النفس :



وما احتجابى عن عيب أتيت به

وانما الصسون من شأنى وعاداتى

ولو كنا فى مجال المناقشة كنا اثبتنا أن الصون لايقوم  
باسدال الخمار ، كما ان التبذل ليس قائما بالسفور . انما  
الصيانة والعفة ملكتان نييلتان من ملكات النفس ، تأخذ  
بهما المرأة بصرف النظر عن زى الثوب وهندام الرأس .  
وسنرى عندما ننظر فى آراء أخرى لعائشة أنها ان هى  
فاخرت بالحجاب فى شعرها فهى تشكوه فى نشرها ، لانه  
حرمتها مجالسة أهل الفضل والادب وحال دون الاستزادة  
مما ترغب فيه من علم ومعرفة

أما الآن فحسبنا الاصفاء الى بقية ماتقول مفاخرة  
بالحجاب . هى تفاخر ، ونحن نوافق على هذه المفاخرة التى  
نود ان تكون نشيدا للصيانة النسائية الاخلاقية ، ونتمنى  
وجود هذه الصيانة الابية ، وبأرقى مظاهرها ، عند كل  
امراة وكل فتاة . وهذه هى ابيات المفاخرة الوحيدة فى شعر  
عائشة :

بيد العفاف اصون عز حجابى

وبعصمتى اسسمو على اترابى

وبفكرة وقادة ، وقريحة

تقادة قد كملت آدابى

ومنها :

ما ساءنى خدرى وعقد عصابتى

وطسراز ثوبى واعتزاز رحابى

ما عاقنى خجلى عن العليا ، ولا

سدد الخمار بلمتى ونقابى

عن طى مضمار الرهان اذا اشتكت  
صعب السباق مطامح الركاب  
بل صولتى فى راحتى وتفرسى  
فى حسن ما أسعى لخير مآب



نيات صالحة وآراء طيبة . بيد أنى اذ اراها مؤكدة المرة  
بعد المرة ان السعادة فى حسن الاخلاق يخطر لى أحيانا ان  
أقول : كلامك ياسيدتى على الرأس والعين ، لكنى لا أراه  
متطابقا والواقع . الشعر الاخلاقى غير الشعر الفزلى .  
هذا يلقي الينا بما شاء من العواطف والخيالات والامانى  
فيروقنا ونطرب له . أما الشعر الاخلاقى فشىء آخر . انه  
يلقى على درسا ويختط لى طريقا . فلى الحق ان أناقشه  
اذا هو لم يفلح فى اقناعى بقوله ان السعادة فى حسن  
الاخلاق وفى صيانة النفس وفى حفظ اللسان ، الى آخر  
مايسديه الى من النصائح . فهاك انسانا صالحا لم يجن  
اثما ، ولا يؤذى أحدا . يعبد الله ، ويسالم الناس ، ويتكل  
على ذاته فى العمل ليل نهار متبادلا واخوانه البشر منافع  
العمل وحسناته . ورغم كل ذلك فهو ليس بسعيد ، فى  
حين فلان ، وهو سىء الخلق لايراعى فى معاملته ذمما ، ولا  
كرامة ، ولا عدلا ، ولا حقما ، فهو مع ذلك سعيد تبسم  
له الدنيا ويساعده الحظ فى جميع شؤونه . ثرثار ، طويل  
اللسان ، طويل اليد ، الاغتياب دأبه ، والنفاق ديدنه ،  
وبرغم ذلك فالناس له مصادقون واوفياء يعزونه ويكرمونه  
ويهابون جانبه . فكيف اهتدى الى الصواب وسط هذا

التناقض المبين ؟ علام يرغد المنافقون والدساسون حولي ،  
وانا من الرغد والطمأنينة محروم ؟ وأولئك الذين يمزقونني  
بافتراءهم وتطاوؤهم ، ترين بماذا أجيبهم وكيف أعاملهم ؟  
عشنا نلقى على شاعرتنا هذه الاسئلة ، انها لاتعطى عنها  
جوابا . بل تحدثنا عما تفعل هي عندما تتألم من مثل  
مايؤلمنا وكيف انها اتخذت من النوائب وسيلة للتشديد  
والتقوى والتغلب على النفس المتوجعة وعلى العالم الظالم :  
كم قابلتني ليال ريحها سعر

بطيئة السير ترمى بالشرارات  
لاقيتها بجميل الصبر من جلدي  
وبت أسقى الثرى من غيث عبراتي  
كم أقعدتني أيام بصدمتها

وقمت بالعزم مشهور العنايةات  
وأما كلام الناس ، أغبياء كانوا لا يدركون فضلها ام كانوا  
حسادا يتحرقون من تفردھا ، فانها تحتمله بتجلد وادب ،  
ولا تشكوههم لاحد لانها لاتجهل مايصطنعونه من اهتمام في  
الظاهر وهم في سرائرهم غافلون أو مبتهجون . وان هم  
من تلقاء أنفسهم تعملوا عندها الاهتمام والعطف أو جأهروا  
بالموم والنقدتظاهرت هي بالرضى وحدثتهم عن «ابتهاجاتها» :  
وكم حليفة سعد اذ تعنفني

تقول سعيكم مذموم النهايات  
فأخفض الطرف من حزن أكابده  
واهمل الدمع من تلك المقالات  
ومنها :

ومذ أتت عدلى تبغى مصادرتى  
ظلما ، منعتهمو أسنى الكرامات  
وكلمما عددوا ذنبا رميت به  
بسطة للعفو راحت اعترافاتى  
ولم أفه لذوى رد لمعرفتى  
ان الحبيب حبيب فى المسرات  
أقوم والضيم تطوينى نوائبه  
طى السجل ، ولم أسمعہ اناتى  
اخفى الأسى ان حسود جاء يسألنى  
لأين تسعى ؟ وأومى لإبتهاجاتى  
وعلام هذا الاجتمال ؟ ولماذا يكون بين الناس المحظوظ  
والمغبون ؟ الجواب عندها أمثال كئيب :  
أقول للصبر : لا عتب على زمن  
أعطى لأبنائه أسمى العطيات  
فيحدثها الصبر بحكاية تقلب الأيام ، فتدوق الحديث  
كأن فيه بعض التعزية :  
فقال : مهلا ، ولا تغررك شوكتهم  
فالصحو يعقبه سود الغمامات  
فليس كل ملوم دام مكتئبا  
وما السعيد سعيد للملاقة  
فدهرهم غرهم جهلا وما علموا  
ان الزمان قريب الالتفاتات  
بيد أن هذه التعزية لا تطيب خاطرها ولا تقنعها ، فتعود  
فى آخر القصيدة الى الشكوى والتضرع :

ربى الهى معبودى وملتجئى  
الىك ارفع بشى وأبتهسالاتى  
قد ضرئى طعن حسادى، وانت ترى  
ظلمى ، وعلمك يغنى عن سؤالاتى  
ومنها :

فكيف اشكو لمخلوق ، وقد لجأت  
لك الخلائق فى سر وشادات  
فيا لها من جراح كلما اتسعت

اعيت طبيبى رغما عن مداواتى  
وهكذا نحن من شعر عائشة الأخلاقى فى دائرة صغيرة لا  
تنفحنا بمتين الحجة أو بمكتمل الراى القائم بنفسه . بل  
نشر فيها على الكلمات المسكنة من صبر وتجلد وانذار بان  
الأيام متقلبة لا تدوم على حال . ودفعنا للألم تتسمى عائشة  
ان تتجرد من كل شعور وكل رجاء ، وكل اغتباط ، وان لا  
تنتظر السعادة كيلا تفاجأ بالفشل والخيبة :  
فلا تقل لى متاع وهو عارية

والياس عندى راحت اعترافاتى  
على ان الراحة الكبرى عندها فى الصلاة وفى الالتجاء الى  
الله الذى هو وحده يسعد ويشقى . وهذه العاطفة تصل  
بين شعرها الأخلاقى وشعرها الدينى فتجمل منهما مزيجا  
واحدا



لقد تغدت الانسانية منذ فجر تاريخها ، بعواطف أولية  
قليلة استدرت منها كل نشاطها وما فتئت تسوقها فى

جهادها . وتلك العواطف منها الحسن ومنها السيء . ومن مظاهرها ما هو صالح ومنها ما هو طالح . ومن تمازج هذه العواطف في نفوس الأفراد وفي نفوس الجماهير تتكون الرغبات والشهوات والانفعالات التي تتلاطم وتتعارض فيما بينها . فينجم عن تباينها ومضيها في الاسترسال ما نسميه التطور الانساني الذي نشهد منه هذه الصور الرائعة دهر بعد دهر في ازدهار الحضارات ، وفي كل ما يهتدى اليه الانسان من اكتشاف علمي واختراع آلي ، ونظام اجتماعي ودولي ، وابتكار فني وأدبي

ومن تلك العواطف الانسانية الاعجاب بمكارم الاخلاق الذي نجده حتى عند أخط الجناة غريزة ، ومنها العاطفة الدينية المتلونة بشتى الألوان على تنوع النفوس ، حتى لتبدو أحيانا في مظهر يزعمه البعض « كفرا » . على أنها متأصلة عريقة في قلب الانسان الذي يروعه هذا الكون العظيم فيتساءل منذ الذي انشأه . ويذهله النظام الدقيق في الفلك الدائر ، في نمو النبات ، في سنن الحياة فيبحث عن الغاية التي من أجلها ينفذ هذا النظام . ويجزع مما يهدده من حاجة وألم ومرض وعجز ونكبة وموت فيلجأ بداهة الى القوة العليا المهيمنة على عوز البشر وبؤسهم ، ويبتهل اليها مستسلما لعوامل رحمتها وأحكام حكمتها . هذه هي البواعث الأساسية للشعور الديني الذي يسبك فيما بعد كل نفس في قالبها الخاص . ولقد كانت العاطفة الدينية حية كل الحياة عند شاعرنا ، وقد سمعت من شقيقها المفضل أحمد تيمور باشا ، انها كانت تقية تصوم وتصلي وتقوم بجميع الفرائض الدينية . على أن شعرها الديني لا

تعمق فيه ولا روعة . هو كسائر شعرها ، يتناول النواحي  
المألوفة المتداولة . ويمتزج بالعاطفة الأخلاقية من حيث  
الاعتراف بالذنوب والرغبة في التوبة ، ومن ثم يبدو فيه  
الاستعداد لساعة الرحيل ، وذكر هذه الساعة يحملها على  
وصف ما يجول في القلوب من طمع حيال سرير المحتضر  
أمام حشرة النزع ، حتى عند هيل الثرى على نعوش  
الأقربين ، وفي هذه الأبيات سخرية طفيفة في مسن من  
الكآبة على ما يبذله الحى من مجهودات لحشد المال :  
أراك بلمتى ، يا شيب ، عظنى

وقد حان الرحيل غدا ، لعلى !  
فأول ما نرى حدث مهول

تهيل ثراه كف أخ وخل  
وقد رجعوا كأن لم يعرفونى

وهم نسبى وابنائى وأهلى  
وتشتغل البنون بقسم مال

أنا من حشده فى عظم شغل  
وليس عائشة بفريبة عن الشعور بحيرة النفس وتردها  
بين ما يخالجه من عوامل الاغراء بملذات العالم وبين نزعته  
الى البر والتقوى :

كيف المسير الى ارض المنى وأنا  
بطاعة النفس فى قيد الضلالات ؟

والجواب فى الابتهاال الذى الفناه عند عائشة ، وهو الذى  
يدعو الى نعت هذا الشعر بالابتهاالى :

ان كان عصيانى وسوء جنايتى  
عظما ، وصرت مهددا بجزائى

فَقَضَاءُ عَفْوِكَ لَا حُدُودَ لَوْ سَمِعَهُ  
وَعَلَيْهِ مَعْتَمِدِي وَحَسَنَ رَجَائِي  
يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَلَا يَرَى  
أَنِي رَجَسْتُكَ أَنْ تَجِيبَ دَعَائِي  
يَا عَالَمَ الشُّكُوكِ وَحَرَّ تَوْجَعِي  
دَائِي عَظِيمَ الْقَرْحِ ، جَدِّ بَدَوَائِي !  
بِحَبِيبِكَ الْهَادِي سَأَلْتُكَ دَلَّتِي  
لِعِلَاجِ أَمْرَاضٍ وَجَلَبَ شِفَائِي !  
وَهَذَا الشُّعْرُ الْمُبْتَهِلُ مِنْ شَاعِرَةٍ مِصْرِيَّةٍ شَرْقِيَّةٍ مُسْلِمَةٍ  
يَعِيدُ إِلَى ذِكْرِ الْقَدِيْسَةِ تَرِيْزَا الْإِسْبَانِيَّةِ الْأَوْرَبِيَّةِ الْمَسِيْحِيَّةِ ،  
الَّتِي عَاشَتْ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ وَأَسَسَتْ رَهْبَنَةَ الرَّاهِبَاتِ  
الْكْرَمَلِيَّاتِ ، وَقَدْ لُقِبَتْ « بِالْعِذْرَاءِ السَّارُوفِيْمِيَّةِ » نَسَبَةً إِلَى  
الْمَلَائِكَةِ السَّارُوفِيْمِ لِفَرْطِ تَقْوَاهَا ، وَنَقَاءِ نَفْسِهَا ، وَرُوحَانِيَّتِهَا  
الْحَارَّةِ ، وَشَفَقِهَا بِالسَّيِّدِ الْمَسِيْحِ الَّذِي كَانَتْ تَتَخِيلُ أَنَّهُ يَتَجَلَّى  
لَهَا وَيَخَاطِبُهَا فِي سَاعَاتِ الْإِنْعِطَافِ وَالرُّؤْيَا . وَقَدْ نَظَمْتُ شَعْرًا  
ابْتِهَالِيًّا جَمِيلًا فِي لَفْتِهَا الْإِسْبَانِيَّةِ ، أَشْهَرُهُ نَشِيدَ وَجِيزٍ تَرْجُو  
فِيهِ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهَا بِالْمَوْتِ لِتَتَجَرَّدَ مِنْ نُوبِ التُّرَابِ  
فَتَرَاهُ عِنْدَئِذٍ وَجْهًا لَوَجْهِهِ . فَهَمَّ فِي ذَلِكَ النِّشِيدِ الْمُلْتَهَبِ  
تَقُولُ :

### نَشِيدُ الْقَدِيْسَةِ تَرِيْزَا

« أَحْيَا دُونَ أَنْ أَحْيَا فِي نَفْسِي ، وَانْتَظَرِ حَيَاةً هَكَذَا رَفِيعَةً -  
حَتَّى أَنِّي لَا مَوْتَ لِأَنِّي لَا أَمُوتُ  
« وَأَنِّي لِيَزِيدُ فِي كَلْفِي  
« أَنْ أَرَى إِلَهِي لَدَى سَجِينَا حَتَّى أَنِّي لَا مَوْتَ لِأَنِّي لَا أَمُوتُ



(( انظر كيف اذوب شوقا الى رؤياك ، ولا طاقة لى على الحياة  
بدونك ، حتى انى لاموت لانى لا اموت  
( ( فمتى يتيسر لى ، يا الهى ، ان اقول القول الفصل بانى  
اموت ، لانى لا اموت ) ( !

ولكن الفرق بين الشاعرتين ان القديسة المسيحية واثقة  
من رضى الله عنها ، عالمة بحبه لها ، وانما تعذبها قيود  
الجسد التى تشد وثاقها بالارض وتحول دون فناء روحها  
فى روح الله . ففى صيحتها شىء من التدلل على المحبوب ،  
وفيهما كذلك صدحة الشوق والنشوة والظفر ، اما التيمورية  
فمبتهلة فى لهجتها

ولكانما كانت تياس لولا رحمة الله الواسعة ولولا شفاعه  
النبي الكريم الذى تلوذ بحماه وتترنم بمدحه وتمجيد امته :  
طه الذى قد كسى اشراق بعثته

وجه الوجود سناء الرشده والكرم  
طه الذى كللت انوار سنته

تيجان امته فضلا على الامم  
نعم الحبيب الذى من الرقيب به

وهو القريب لراجى المجد والنعم  
روحى الفداء ، ومن لى ان اكون له

هذا الفداء ، وموجودى كمنعدم  
وما هى الروح حتى افتديه بها

وهى البغاث بفار الظلم والظلم  
ومنهما :

ولا يحيط به مدح ولو جعلت  
جوارحى السسنا ينطقن بالحكم

وما سوى عز كوني بعض أمته  
ذخرا أفوز به من زلة الوصم  
الا التماسي عفوا بالشفاعة لى  
من خاتم الرسل خير الخلق كلهم



رأينا فى هذه المقابلة الصغيرة ، أنه كما يتلاقى البشر فى  
أبحاث العلم وضروب الفن والأدب والفلسفة والحكمة ، وكما  
يتفاهمون بالحب وابتغاء الخير العام وبالمعاني الانسانية  
الرفيعة ، فكذلك تتوحد عواطف البر والتقوى وحب الله فى  
قلوب الصالحين

امراتان مختلفتان دينا وجنسا وقارة ، تعيشان على  
تباعد ثلاثة قرون وتزيد ، فى بيئتين ، كل منهما غريبة عن  
الأخرى ، وهما مع ذلك تناجيان الها واحدا لا اله الا  
وتصليان صلاة واحدة حافلة بالامل وبالاتكال وبالثقة فى لفة  
الغرب وفى لفة الشرق على السواء

وبين ما يبدو الآن فى الشرق من جديد العوامل والنزعات ،  
نجد الدعوة الى وحدة قومية ووحدة انسانية مع احترام  
العقائد الدينية ، وترك الحرية لكل فرد يتمتع بها دون  
التعدى على حرية أخيه ودون أن تعمل هذه العقائد المتباينة  
على تفريق الكلمة وتمزيق الشمل . وأسجلها مفخرة لعائشة  
ان تجيء بقول له ، فوق قيمته التاريخية والأدبية ، ما  
يمكننا من هذه المقابلة الجميلة فيتيح لنا الأمل الى هذه  
الوحدة النبيلة التى يتفشى الآن حبها فى ربوعنا ، والتى  
يتصافح عندها ويتصافى بنو الانسان

## الفصل السابع

### نثرها

- ١ - كتاب « نتائج الاحوال »
- ٢ - كتاب « مرآة التأمل في الامور »



## نتائج الاحوال

أما الشعر فقد قرضته عائشة تحدينا لبعض من سبقناها  
من « ذوات الخدر والاحساب » ، أو كما قالت :  
ما قلته الا فكاهة ناطق يهوى بلاغة منطق وكتاب  
واما النثر فقد عالجت له لساعات الفراغ الطويلة التي  
لم تكن لتستنفدها محبة الابناء وواجبات المنزل ، ولياقات  
المجتمع ، وفروض العبادة ، ونظم القصائد ، وقد شعرت  
قليلا قليلا بأنها تحب ان يكون لديها بلاغ تؤديه الى قومها .  
واما هذا الكتاب خاصة « نتائج الاحوال » ، فهي تطلعنا في  
مقدمته على بواعث انشائه وتخبرنا كيف كانت دواما تميل  
الى استقصاء احاديث السلف وتحب مسامرة الكبار  
ومجالسة المجائز لتسمع اخبارهم « والتقط من تلك النوادر  
اماجيب القدر » . ولما تم لها ذلك وانشأت تطالع « من  
التواريخ ما قدرت قدرتي ان ندانيه ، وما امكن فكرتي  
الخامدة ان تصل الى معانيه » . ولما تأملت في سير سير  
الامم ، وتحققت ان السعد والنحس منوطان بالقدر من  
القدم ، وقد شاهدت والله في نفسي صدق هذا الخبر . . .  
فدعنتي الرافة بكل مغبون اقي مالقيت ، ودهى بما به  
دهيت ، الى ان ابدع له احدثه تسليه عن اشجانه عند  
تراحم الافكار . . .

اذن فلتعمد هي الى تخيل الخيالات ونسج الحكايات . ولن

يكلفها ذلك اكثر من جمع شتات مآقر في ذهنها من حكمة  
العجائز وما يتطابق واياه من تجاربها الشخصية ، لتدوين  
آراء شائعة مقبولة في احوال هذا الناس : في السعد والنحس ،  
في الصبر والمواساة ، في الخيانة والوفاء ، في الحب والكراهة ،  
في القضاء والقدر ، في التربية والاخلاق ، وفي ما يستتبع  
المصائب والرزايا في النفس الرشيدة من تقويم ورجوع عن  
الفى والضلال

« نتائج الاحوال » هو بالجملة من رواسب تلك القصص  
التي سمعناها في طفولتنا ، خلال الليالي الساهرة في زمهرير  
الشتاء وهزيم الرعد وتدفق الامطار . فتمتعنا منها بلذاتين  
اثنين : لذذة التحرز من غضب الطبيعة وصقيعها في ملجأ  
دافئ ، ولذذة الاستماع الى سير الملوك والابطال والجان  
والعاشقين يتصرف بهم القضاء والقدر ، لينتهى بنا الامر  
في الغالب الى اندحار الشر وانتصار الخير

فاذا تطلعت الى خلاصة « نتائج الاحوال » فهب أنك  
تصفى الى في ليلة صاقعة ممطرة وأنت في ثوب الطفل الغرير  
ففي هذه الحال تتذوق حكايتي بما فيها مما وعيته من  
اقاصيص الماضي الساذج



هذه ككل قصة قديمة تحترم نفسها ، فيها ملك وابن  
ملك ووزير ونديم ، وعريس وعروس ، وغير ذلك كثير .  
واليك أسماء أهم الشخصيات :

العادل - ملك عظيم صالح منصور

المدوح - ولي عهده ، محور آماله ومطمح آمال الشعب .  
وهو بطل الحكاية

**عقيل - الوزير .** وهو واسع الادراك حاذق التدبير ،  
وقد فوض اليه الملك ان يدير شئون الدولة

**مالك - النديم .** ويظهر أنه على غير ما يستحسن في  
النديم من عذوبة المنطق وبراعة الظرف ولطف السمر « ولم  
يبد من أولئك شيء في سياق القصة » فهو ذو مواهب خلقية  
كالوزير من حيث الاستقامة والوفاء والحصافة وسسعة  
الادراك وحسن التدبير . قد يحار علماء النفس حيال مثل  
هذا التركيب السيكوأوجي ، لكن حيرتهم لاتغير الواقع

**دشنام - قيم على خزينة المال**

**غدر - قيم على خزينة السلاح**

**بوران - ابنة ملك العجم وخطيبة المدوح .** مشهورة  
بسداد الرأي ، وذكاء العقل ، وحسن الادارة

أما « حبكة » القصة فمنشأها ان الملك مولع بولده ،  
شأنه شأن الكثيرين من الآباء في الشرق من حيث يسىء فهم  
المحبة الوالدية ويحسبها قائمة في انالة الولد جميع مطالبه  
وعدم التعرض لصد أهوائه . أخذت تظهر نتائج هذه التربية  
السيئة في سلوك الغلام وفساد أخلاقه ، فلم يجرؤ على  
لفت الملك الى ذلك سوى الوزير والنديم . لكنهما لم يحدثاه  
في ذلك مباشرة ، بل في حديث رمزي طويل ذكر فيه حديقة  
فيها غصن لم يحسن تقليمه . فأدرك الملك اللبيب غرضهما ،  
وأفحمته حجتهما ، وندبهما لتثقيف ولده وتعليمه . فقاما  
بذلك خير قيام ، وبدأت نتيجة جهودهما في زمن قصير  
بتحول التلميذ النجيب عن وجهة الطلاح والجموح الى وجهة  
الصلاح والسجاجة . ولا تسئل عن سرور الملك ! انه عبر

عنه تعبيرا فاخرا بالطريقة التى ألفها ملوك الحكايات فى  
عطفهم على من يحسن فى سبيلهم البلاء ، ويخدمهم فى  
صدق ووفاء

وازاء هذين الرجلين الامينين لمولاهما ، ولوظيفتهما ،  
وللمصلحة العامة « اذا جاز مثل هذا التعبير فى الحكايات  
القديمة » نجد مثالا شنيعا للحسد والخيانة والدسيسة فى  
القيمين دشنام وغدور . فقد أخذهما الاستياء من نجاح  
الوزير والنديم . فدأبا ايفسدا عليهما الامر بتملق الامير  
الصغير وايفار صدره على هذين اللذين يقصيانه عن اندية  
اللهو والمرح ، ويبعدان بينه وبين والده بحجة التعليم  
والتهذيب ، بينا هما فى الواقع يكيدان له لانتقاص سطوته  
وكرامته وتنقيص حياته

وتبع ذلك جهاد صامت عنيف بين الفريقين : فتارة ترجح  
عند الامير كفة الاخلاص والاستقامة ، وتارة يستسلم لصوت  
الوشاية والافتراء . وتم الفوز للدساسين فى النهاية ، لان  
الحقيقة كثيرا ماتتخاذل وتتوارى فى تعمل الغيرة والتفادى ،  
وكثيرا ما يظفر الخونة والمحتالون ، فخرج الفتى على استاذيه  
الصالحين ، وقاطعهما ، وتوعر خلقه ، وتفاقت شراسته .  
واراد الوزير أن يتلافى الامر بالتى هى أحسن ، فاقترح على  
الملك أن يزوجه . فوافق الملك على هذا الاقتراح . وأنفذ  
وزيره الى ايران يفاوض ملك العجم فى خطبة ابنته بوران  
المشهوره بسدادة الراى ، وذكاء العقل ، وحسن الادارة .  
ومضى النديم الى الشين « الصين ؟ » لاحضار أمتعة الزواج  
وجهاز العروس

وخلا الجو للدساسين قرب التلميذ المنقلب عريسا بين



عشية وضحاها . فحزن الملك جد الحزن لشراسة ولده ،  
وتعاون الفهم والشيخوخة على تهديم صحته واشرف على  
الموت . وماذا عسى يصنع المشرف على الموت ؟ انه يستدعى  
اليه ولده ليزوده بالنصائح . وذاك ما فعله الملك العادل .  
بيد ان المنية عاجلته قبل ان يمعن في الكلام ، فقضى نحبه  
بين ذراعى ولده . مأسوفا عليه من هذا الولد المسكين

وهنا - وقد سنحت للدسائين الفرصة التى تربصا لها  
طويلا - قام القيمان بتمثيل الفصل الثانى والاهم من  
دورهما . فأوهما الشعب بأن الملك مازال على قيد الحياة ،  
غير أنه لمرضه وضعفه عهد اليهما هما القيمان بادارة شئون  
الدولة وشئون ولده . وانفذا الفتى الى المجلس يحمل كتابا  
مزورا فى هذا المعنى ، والفتى فى حزنه على والده مشرد  
الفكر ، لا يعرف مضمون الكتاب . ومن ثم يجهدان للتخلص  
من هذا الفتى فيفوضان أمر الفتك به الى عبيدين يقودانه  
الى خارج المدينة للقيام بمهمتهما الغادرة . ولكنهما تأخذهما  
الشفقة عليه ، فيكتفیان بإبعاده الى مكان لا يستطيع العودة  
منه الى المدينة

ومن الناحية الاخرى ، لايفوت القيمين الافاكين ابلاغ  
الوزير فى ايران ان الامير عشق صبية من بنات الافرنج  
وجرى فى اثرها ، فعلى الوزير ان يمضى فى العالم ليجت  
عنه . ويكتبان الى النديم ان الامير خرج الى الصيد فشرد  
به الجواد « وانساب ذاك الفرس الى ضيعة حرسها عبيد »  
فليجذن اذن فى طلبه بين العبيد . أين ذلك ؟ هنا على  
مقربة منا ، يا أضحابى ، فى السودان ! أجل ، فى السودان

وهاهو ذا صاحبنا الوزير يطوى البرارى والقفار ، وينتقل  
من دار الى دار ! وهاهو ذا صاحبنا الآخر ، النديم ، يذرع  
شواطئ النيل فى أعاليه ، ويفتش فى أقاصى السودان  
وادانيه . وينقضى زمن غير قليل وجميع أقطاب القصة « بما  
فيهم انا التى أقرؤ لالخص » فى مثل تيسه بنى اسرائيل  
يعمهون ! وليس من سبيل يتبع فى « نتائج الاحوال » سوى  
اشتباك القصة الصغيرة بالقصة الصغيرة ، وارتباك هذه  
بقصة غيرها ، على نحو حكايات « الف ليلة وليلة » و « كليلة  
ودمنة » . واذا كنت انا وأصدقائى أشخاص الرواية نجوب  
الكتاب لنعثر بعضنا على بعض فلا نفوز بغير التطوح والتنائى ،  
كم ذا سألت الله ان يأخذ بيدنا فيجمع شملنا ويرد لهفتنا !  
لاسيما الفتاة العروس بوران التى ما علمت بما جرى اخطيبها  
حتى طلبت الانفراد فى عزلة عن الناس . واراد والدها ان  
يزفها الى ابن اخيه ليتدارك الحال ويحول مجرى افكارها  
قبل الاستفحال فى الجوى . ولكنها أبت ، وفرت الى حيث  
لا يعثر عليها ! لانها على نحو ما ينشد الشيخ سلامة حجازى  
فى الجراموفون :

عرفت هواكم قبل ان أعرف الهوى

فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وكم كان يفيظنى اننا بينا نحن « أى انا والصلاح من أهل  
الرواية » تعبت بنا الاقدار وتجد بنا النوى فنتقل على مثل  
جمر الغضى ، اذا بالفاصبين الخائنين يسرحان فى بغداد  
ويسرحان ، لهما تضرب المدافع وتنشر الاولوية ، ولهما تقدم  
الرعية فروض العبودية والاكرام !

بيد ان للايام دورتها ، واخذت تتحول الامور على ما يرام .

فتلاقى بديا الامير والنديم فعجلا بالذهاب الى ايران ، حيث تسوق الفتى اشواقه . فهو كعروسه ، قد وقع الهوى من نفسه مكانا بعيدا ، وظل في مصائبه ويأسه يلزمه خيال الفتاة التى وعدوه بها دون ان يعرفها . وكان للامير والنديم في ايران رحلات عديدة غير موفقة . الى ان اقبلا اخيرا على جبل شاهق فاذا هناك اشارة تركها لهما الوزير تدعوهما ، فيما لو اهتديا اليها ، الى العراق مباشرة

فعادا مباشرة الى العراق واجتمعا بالوزير وهو في زى ناسك ، ولك ان تطلق هنا العنان لمخيلتك فتصور ما شاء لك التصور من سرور وحبور ، من بكاء واغماء ، يتسلوه يقظة ، فسلام ، فكلام يناسب المقام . وانضم الى هؤلاء الثلاثة العبدان اللذان ابقيا على الامير ، وكان القيمان الفاصبان قد ارادا الايقاع بهما لانكشاف فعلتهما ، فاخفق الخائن ونجا العبدان الوفيان . وكان هذا النلاقى مبعنا لمؤامرة طويلة ، وقد آلى كل من المتآمرين على نفسه ليصرعن الآفة بالآفة ، ويفلن الحديد بحديد مثله ، وآزرهم طبيب الملك ، ودبر لهم الحيل ، فكان الفوز حليفه في كل ما دبر . فأوفد الى أصحابه المتآمرين عددا من الرجال ، وحفروا نفقا يمتد الى قلب المدينة ويفضى الى خزانة الدولة ! وأبى السعد الا ان يكلل مساعيهم بالنجاح والا ان يهيب لهم الافراح والليالى الملاح ، فلم شملهم بالعروس بوران ! لست بوصفة لك مشهد اجتماع العاشقين السعيدين بعد طول الفراق ! حسبى أن أتمنى لك مثل هذه الساعة مع من تهوى ... وعندما آن الاوان ليثوب كل من الحبيين الى رشده ، جاهرت الفتاة برغبتها في العودة

الى الوطن ليزفها ابوها الى خطيبها بالابهة اللائقة بالملوك  
« لا بد لى ان اتوصل الى بلادى بشرفى - تقول بوران -  
وادخل قلعة ابي بصيانتى . ثم يبعثنى هو الى هذا العزيز  
بصيانتى »  
وكذلك كان

وعاد الاصحاب بعدئذ الى اتمام اعمالهم ففاجأوا البلاد  
بدخول الامير منصورا وقبضوا على الخائنين . وتتابع  
الحوادث والمشاهد بمثل سرعة الصور المتحركة ، منها :  
موكب الملك - المدافع تقصف والطبول تدوى - هيجان  
بغداد وافراحها - فوز الحق والصلاح وانهيال الفسادر  
والطلاح - مجيء العروس فى موكب بديع - المنسادة  
بالممدوح خليفة واجلاسسه على « التخت » - افراح -  
انوار - اهازيج - زينات - شמוש مجلوة - بدور منيرة -  
وفوق كل ذلك خطب واشعار ! وبات العروسان يديران  
كؤوس المراد السكرية ويتداولان اقداح الوداد العبقرية «  
وفى القصر اقيمت بالطبع حفلة « تشريفات » لمناسبة  
الجلوس المجيد والزفاف السعيد . فتقاطر المهنئون ،  
وتليت رقاع التهاني ، ووزعت الهدايا من العروس على  
ارباب الدولة . وجادت قريحة الملك فانبرى يخطب فى  
الجموع شاعرا ناثرا ، ويمتدح النواثب التى هذبته وعلمته  
الصبر والحكمة . وهاكم أبياتا من نظمه :

واشتاقنى عزى كشوقى للمنى  
منسند كنت ألقى لاعج اللوعات

قلدت سيف الصبر كى بجزازه  
أسطو على محن الزمان العسائى

حتى قطعت به حبائل محنتي  
وسلكت نهج الرشيد في طياتي  
وانا المقر بما جنيت ، وليس لي  
عذر سوى أسفى على هفواتي  
فلاشكرن شـائددا لو لم تكن  
ما كنت أدري زلتى لمـساتي



أدركنى العياء فى مراجعة هذه القصة المكتوبة بلفسة  
« المقامات » ، ذات الكناية والسجع والتطويل ، غير أن  
مطالعتها ومطالعة أمثالها تتحتم على الباحث عن مصدر  
التطور ، وهذا الفن بارقة للفن القصصى الحديث عندنا ،  
ذلك الفن الذى ما زال فى لغتنا جدينا ولم يبلغ قط عند  
العرب طور النضج والقوة

تاريخ الفن القصصى عند العرب يتلخص فى سطور  
وجيزة . فقد نشأ فى القرن الاول للهجرة مستندا الى  
تاريخ الجاهلية ، وظل فى نمو يقتبس من التاريخ ومن  
الخيال معا حتى القرن الرابع . فجاء بتلك القصص أمثال  
« الجمهرة » و « عنصرة » و « بكر وتغلب » و « شيبان  
وكسرى أنوشروان » ، وغيرها من قصص الغرام مثل  
مجنون ليلى وجميل بثينة ، وما الى ذلك من عديد القصص  
التي اندمجت بعدئذ فى كتاب « ألف ليلة وليلة »

وقد ألف العرب كتباً لا أصل لها فى الواقع إنما استمدت  
موضوعها من العلم والخيال والحكمة جميعاً . وربما كان  
أنفس تلك الكتب « أسرار الحكمة المشرقية » الذى روى

ابن طفيل الاندلسي انه لخصه عن كتاب كبير من وضع  
الرئيس ابن سينا حيث هذا الحكيم صور نشأة الانسان  
والمع الى نظرية التطور

اما كتاب « ألف ليلة وليلة » فهو فارسي الاصل . وقد  
وضع اصله في القرن الرابع فتناولته ايادي النساخ بالاضافة  
والتحريف فكان كل منهم يزيد عليه وينقص فيه ما شاء ،  
وذلك حتى القرن العاشر

ووقف الفن القصصي بجمود اللغة مدة ثلاثة قرون .  
فحكاية عائشة بعيوبها ورواسبها تجربة اولى في النزعة  
المتجددة ، لا سيما فيما يختص بالادب النسائي . اذ لا علم  
لى بامرأة عربية اللغة وضعت قصة تامة قبل عائشة .  
فهي بتجربتها هذه من رواد المنهج الجديد



والرواية بعيوبها ذات مغزى اخلاقي . لان واضعنها  
جعلت سوء تربية الممدوح وعجزه عن تمييز الصديق من  
العدو منشأ مصائبه . فقد رأى عدوا في من يحسن  
ارشاده ، ويعلمه كبح أهوائه ، وينبئه الى واجباته  
ومسؤولياته . وحسب صديقا من حفر طيشه وغروره ،  
وملق منه الزهو والعجرفة ، وشجعه على العبث بكرامة  
الناس وكرامته الشخصية . فعوقب بنتائج ضلاله .  
والكنه يوم تاب واعترف بخطئه ، بعد أن أتمت المحن صقله  
وهيأته لمنصبه ، عادت اليه حقوقه ومسراته وحقق جميع  
رغباته . ومن ثم اسم « نتائج الاحوال »

اما ان الحياة تقتصر فمعنا ، بنى الانسان ، على هذه

الكيفية فقد يحدث أحيانا ، ولكن نقيضه قد يحدث أيضا .  
قد يتفق أن يعلو صوت الحق ، وينتصر الصلاح ، فيظفر  
المرء بما هو له في حكم الطبيعة والقانون والكفاءة ، وقد  
يثاب المرء عن الخير خيرا ، وعن التضحية كرامة . ولكن  
كم ذا يفوز الشر ، ويغلب الظلم والخداع ! كم ذا يجار على  
صاحب الحق في جميع القوانين البديهة والمشروعة ! وكم  
يتألب الناس على سحقه واهلاكه ، وما له من ذنب سوى  
الاخلاص والتفادى ' .

وما كان أعدل ! الدنيا وأنصف الدهر ، لو عومل كل بما  
يأتيه ، وكان حقا من نوع العمل

على أنه لا مندوحة لنا عن الأخذ بالمبادئ الاخلاقية  
ونشرها . ولا بد من تلقين النشء دروس الصديق  
والاستقامة والصلاح مهما عصفحت حولها الشرور والاكاذيب  
والمفاسد ، لانه ينطبق على المبادئ الاخلاقية السامية  
ما قاله قوله الجاحد في الالوهية : « لو لم يكن الله موجودا  
لوجب أن نخرعه ' »

أجل ، يجب أن نخرع الاخلاق السامية لو لم تكن  
موجودة . لانها مع المواهب الفكرية والذهنية ، انما هي  
لباب الفضل في الانسانية ، وهي التي لا يتغلب عليها مذهب  
سياسي ولا تدك قواعدها ثورة اجتماعية ، فعلى من  
يستطيع تأييدها ونشرها أن يفعل ، ليدكرنا على الدوام  
بأن الدنيا ذخيرة من أنفس ذخائر المثل الاعلى الذي لا يقتصر  
على جيل أو على فرد ، بل تتعاون الجماعات والدهور على  
تمثيله وتحقيقه



## مرآة التامل

الشائع أن « باحثة البادية » كانت أول مصرية عالجت الموضوعات الاجتماعية ، وقد سبق أن أيدت هذه الفكرة قبل الاطلاع على نشر التيمورية . فأستدرك اليوم لأسجل الأسبقية لعائشة التي كتبت في هذه الموضوعات في صحف عصرها وفي « مرآة التامل في الامور » ، وهذه رسالة وجيزة في ١٦ صفحة من القطع الكبير . ليس لهذه الرسالة من تاريخ يوقتها . الا أن كاتبها ختمتها ( على طريقة ذلك العهد ) بامتداح لسمو الخديو السابق ، عباس حلمي باشا ، فقد نشرت اذن بعد توليته ، أي بعد ١٨٩٢ ، وفي السنوات العشر الاخيرة من حياة التيمورية

لغة هذه الرسالة ككل ما نشرت عائشة ، هي لغة المقامات ذات السجع والتطويل ، وهي تستهلها بالشكوى وتفكر « لعلى ارى لسماء الصفو هلالا ولعقد الأزمة انحلالا . . » ويظهر انها عثرت على « انحلال لعقد الأزمة » أو ما يشبه ذلك ، لانها « فناداني زعيم الجسارة هلمى الى مقصورة السلامة ، ولا تحذرى الانتقاد والملامة ، وعليك بايضاح الدعوى . . . »

وهنا قامت و « زعيم الجسارة » ذاك — ولعله صديق خيالى — بتخاطب حفل بالتفخيم المسجع شغل صفحتين



اثنيتين . فوصلنا أخيراً في أول الصفحة الرابعة الى «ايضاح الدعوى» . وما هي سوى انقلاب الادوار بين الرجال والنساء ، وتسرب الفساد الى داخل الاسرة . وتفصيل ذلك عندها أن جماعة من الشبان «غرههم الله بالغرور حتى أن كل انسان هم بالاقتران من وضع ورفيع وخامل ونبيه ، كان كل بحثه عن الحل والحلل والضياع والعقار ، لا عن النسب والتدين والعفة والوقار » . ذلك ليتمتع بما تمتلكه ربوات الجمال « . . . ويريح فكره من الاتعاب ويستغنى عن الجهد في الاكتساب ، ويسلم الزمام للهوى » ، مكتفياً « بتلك الثروة المستعارة ، وما يدري بأنه واقع في حبال الخسارة . فتحتاط به أقرانه » . « ويقوم جيش المداهنين بين يديه . . . »

« ويظل الزوج بين لهو وتبذير حتى ينفذ من يده الدينار والدرهم ، واذ يعود الى البيت تقابله الزوجة بالسحق والنفور ، ولا يلبث أن ينتقل النفوذ والسيطرة اليها ، لان الزوج عاجز الا عن القصف والتبذير . » وحق الزوجية لا يتم الا اذا كان كل واحد منهما يرعى الآخر فيما له وعليه . فعلى الزوج أن يقوم بكل حقوقها ومصالحها ، كما يجب عليها طاعته والانقياد لأمره » . فاذا انقلب الرأس عقباً فكيف تستقيم الامور ؟ وكيف « لا تلقى المرأة وشاح الحذر وترمي برقع الحياء » ؟

اتكون الزوجة صابرة كتوما ، دفعا للشماتة وحذرا من ذبوع الفضيحة ، « فدفت هذا الويل بجدث قلبها الحزين الولهان » ؟ الا أن الكتمان لا يداوى علة ، والتجلد لا يفتأ غلة ، بل تجذب في نفسها مادة الحياة و « بدلت

القصور بالقبور « ! اذن فالبشرى للزوج الذى لا يرثى ليتم  
الاطفال ، « بل يأخذ من الميراث ما لقى وأبقى ويجعله  
صداقا لمن يلقيها فى أكفه الشقاء »

أم تكون المرأة سليطة اللسان واذ تضيق بالحياة ذرعا  
تعمد الى اللوم والمشاجرة ؟ اذن تبدأ حياة هى الجحيم ،  
اذ لا مقدرة للرجل على زجرها واسكاتها . فيهجربيته  
الى الحوانيت والحانات ، « واذا أتى المنزل نام فى الحال  
خوفا من المرافعة فى القيل والقال »

فكيف تسكت النساء على ضياع شبابهن ونضارتهم  
وأموالهن وآمالهن فى السعادة والهناء ؟ ان الحزن والاسى  
ليلهب قلوبهن ! فتمضى الواحدة منهن الى الجارات مستجيرة  
من عذابها وكربها . فاذا هى وقعت على امرأة فاضلة تهون  
عليها الامر صمتت لحين استئناف الأزمة الجديدة . أما  
اذا ساقها سوء الطالع الى تلك الدور التى تبدل منها الصوت  
والحصانة باسم الحرية العصرية ، فهناك تغريها من سفلت أخلاقها  
فتستسلم المرأة وتخرج عن جادة الحشمة . عندئذ يفار  
الزوج ويقوم بالتهديد والوعيد . ولكن كيف تعبأ المرأة به  
وبكرامته وهو لم يعرف لنفسه واجبات ولم يقف شروده  
عند حد ؟

هذا منشأ الشقاء على ما يبدو للتيمورية . لذلك ناشدت  
الرجال فى آخر الرسالة أن يصغفوا اليها ، ورجت منهم  
« أن لا تنبذوا خطاب هذه الضعيفة ولا تقيسوه بأقوال  
النساء السخيفة »

وقد لبي الرجال هذه الدعوة ، بداهة أو اختيسارا .  
فالنقد الاجتماعى الذى سيعالجه قاسم أمين بحصافة

ولوذعية ، قد سبقته التيمورية بهذه الدعوة الى الاصلاح .  
لان الكتاب الذى وضعه قاسم أمين بالفرنسية ردا على  
الدوق داركور صدر سنة ١٨٩٤ م وعقليته لم تتفتق فيه  
عن تلك الثورة النبيلة الكامنة التى شبت فى كتابيه « تحرير  
المرأة » و « المرأة الجديدة » . وقد صدر الكتاب الاول  
سنة ١٨٩٨ م وصدر الآخر فى ١٩٠٠ م

### لا تصلح العائلات الا بتربية البنات

يقول ابن اخى الشاعر ، الاستاذ محمود تيمور ، ان  
التيمورية نشرت مقالات فى جريدة « المؤيد » . وارجح ان  
خير تلك المقالات ادرجتها زينب فواز فى كتابها « الدر  
المنثور » وقالت انها اقتبسها عن جريدة « الآداب »  
الصادرة يوم السبت الموافق ٩ جمادى الثانية سنة ١٣٠٦  
الهجرية ، اى سنة ١٨٨٨ الميلادية ، قبل ان يكتب قاسم  
أمين فى هذا الموضوع باثنتى عشرة سنة تقريبا

ارجح ان هذه خير مقالاتها لان عائشة كانت وزينب  
فواز على اتصال وأتتلاف . وقد ترجمت زينب لعائشة فى  
حياتها واستقت منها مصادر تلك الترجمة بما فيها نص  
مراسلتها ووردة اليازجى نظما ونشرا . كما انها صدرت  
كتاب « الدر المنثور » بخطاب من عائشة كله ثناء وتقريط ،  
على طريقة يومها ، ولما ادرجت هذا المقال دون سواه فأكبر  
الظن انها فعلت بإشارة التيمورية ، أو انها فضلت على غيره  
نظرا لمحتوياته

انه لأثر نفيس حقا ، لانه بكر فى لمس موضوع خطير .  
وخير ما تنتهى اليه مباحثنا اليوم ليس بأصدق نظرا ، ولا

بأصوب حكما مما جاءت به عائشة منذ ٣٧ عاما (١)

عنوان هذا المقال هو « لا تصلح العائلات الا بتربية البنات » : وكما انها في « مرآة التأمل في الأمور » تجعل منشأ الشقاء في بحث الرجل عن الثروة ليسى بمصدئ التصرف بها فيهدم بيته بيده ، فهي في هذا المقال تلوم المرأة على اسرافها في الزينة دون انتباه الى واجباتها ، وترى في ذلك مبعث الخلل والفساد ، وتعجب « من مدنية تسفف بتزيين فتياتها بحلى مستعار ، وتستعين على اظهار جمالهن بزخرف المعادن والأحجار ، وتخيّل أنها زادت هن بسطة في الحسن والدلال ، والحال انها ألقت تلك الأحداث في اُخدود الويال ، لأنه لا يعد عليهن من تلك المستعارات الا العجب والغرور المؤدى بهن الى ساحات المباهاة والفجور . وذلك

---

( ١ ) نود أن ننبه هنا الى ان المرحوم رافع الطهطاوى هو أول من دعا الى نهضة المرأة المصرية والى تعليم البنات ونثقيفهن اسوة بالبنين وقد وضع كتابا سنة ١٨٧٢ لتثقيف البنات والبنين سماه ( المرشد الامين للبنات والبنين ) . ودعا في هذا الكتاب الى وجوب تعليم البنات واعدادهن عن طريق التربية والتعليم . وقال في ذلك : « ينبغي صرف الهمّة في تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرّة الأزواج فتتعلّم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فان هذا مما يزيدهن ادبا وعقلا ، ويصلحن لمشاركة الرجال في الكلام والراى ، ولتتمكن المرأة عند اقتضاء الحال ان تتعاطى من الاشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقاتها . فكل ما تطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فان فراغ أيديهن من العمل يتسفل السنتهن بالاباطيل وقلوبهن بالاهواء . فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة » . وبذا يكون رفاعه الطهطاوى قد سبق التيمورية وقاسم امين الى هذه الدعوة ( رئيس التحرير )

لكف بصيرتهن عن الإدراك وعدم علمهن نتائج الأحوال  
وعواقب الأمور (١)



موضوع زينة المرأة قد يشغل كتابا أو كتبا لمن يريد أن  
يتناولها من وجهه المهم دون الاكتفاء بالارشاد ، أو بالتهكم ،  
أو النقد الجارح ، لذلك ألقى هنا بكلمة فقط

اعتقد أن من طبيعة وجود المرأة أن تكون جميلة ، كما أن  
من طبيعة وجود النوع الانساني في أن يكون ذكيا نشيطا .  
وكما يصقل المرء ذكائه بالمعرفة والتجربة والاطلاع ، فكذلك  
تصقل المرأة جمالها بالزينة والاناقة والكياسة . الفتاة معدة  
لتكون ربة منزل ، وام عائلة ، وسيدة مجلس زائرة ومزورة ،  
وليست معدة لتزوى في حياة الزهد والرهبانية . فيجب  
أن تنشأ على ما أعدت له من ابهاج المنازل وتزيين المجتمعات ،  
وبث اللطف والأنس في كل ناحية تحل فيه . ولما كان عليها  
أن تبهج برخامة صوتها ، وحسلاوة ابتسامتها ، وظرف  
حديثها ، فعليها كذلك أن تروق النظر بحسن هندامها .  
فالعيب اذن ليس في ميل المرأة ( والرجل كذلك ) الى  
الزينة ، ولكن في المغالاة بارتضاء ذلك الميل ، وعدم الخضوع  
لقواعد الذوق السليم في التصرف بمظهره . والغلو عيب في  
كل أمر ، وسقم الذوق نكبة دائمة

---

( ١ ) للمؤلفة : فلما ناقشت أراء عائشة في هذا الدرس لشعرها ونثرها  
وانما اقتصرت على إبراز أوجه خواطرها . ولولا ذلك لاتسع المجال للاسهاب  
فيما يشقى العائلات ويسعد بها . ولئن طلقت أحيانا على نظرية منها  
فلتعدر السكوت على ما يحتمله ذلك من ابهام وتأويل

وللتوفيق بين تنظيم الزينة والاقتصاد فيها فعلى الفتاة ان تتعودها منذ نعومة أظفارها . بعكس ما تجرى عليه أكثر المدارس ، ان لم نقل كلها ، في تجريد البنات من كل حلية وافهامهن ان الزينة لا تجوز الا بعد الخروج من المدرسة ، فينلن حریتهن من هذه الوجهة متأخرات ، أى ان الحرية فى الزينة تفاجئهن مفاجأة بدلا من ان يتعودنها شيئا فشيئا ، فيكون شأنهن عندئذ شأن من وجب عليه ان يربى نفسه تربية جديدة تناقض تربيته السابقة من كل وجه . ومن هنا عدم التوازن والاتزان ، وعدم وضع الشيء فى مكانه ، واغراق فى اسراف الوقت والدرهم ، والغلو فى الأخذ بأهمية الزينة . ومن هنا زعم أكثر النساء بأنهن لا يتجملن أصلا . والواقع ان أكثرهن زعما وتنصلا أوفرهن تبرجا وتجملا ، ألا اللأى يأبى التجمل ان يتناسب و « طرازهن » الطبيعى وشكلهن

ولو شبت جميع الفتيات على اعتبار الزينة المعتدلة المعقولة الفنية جزءا من ترتيب هندامهن على ما يناسب شكلهن وقالبهن بحكم الذوق والذى السائر ، لما انفقن فى سبيل ذلك وقتا طويلا ولا بدا ذلك فيهن تكلفا وعملا مستثنى ، بل لاندماج فى عاداتهن وصار طبيعيا . واذا لما رأينا المرأة فى كثير من العائلات الشرقية بأثواب رثة قدرة بين زوجها وأولادها ، بلا لياقة ولا حاسة فنية . حتى اذا استقبلت ضيوفا أو خرجت للزيارات ارتدت أفخر الأثواب وازدانت بأنفس الحلى ، فبدت فى كل أولئك غريبة بطيئة الحركات مرتبكة السكنات ، وكأن كل جارحة فيها تنطق بأنها «مطعمة بزى الآحاد والاعياد» على نحو قول الفرنسيين

لو درجت المرأة منذ الصغر على الزينة المعقولة لأدركت  
ان هذه الزينة جزء من جمالها وانها تعالجها لنفسها لا  
للناس ، ولامتدت عنايتها تلك الى منزلها فلا تقصر ترتيبه  
وتزيينه على يوم الاستقبال فى الغرف والردهات التى  
يراهها الزائرون والزائرات ، فى حين هى تبقى فى سائر  
الايام على أسوأ ما يكون من التشويش والارتباك . ولامتدت  
تلك الاناقة غير المصطنعة الى افكارها ، الى آرائها ، الى عاداتها  
الى نظرتها فى الحياة . فالمزية الواحدة ، حتى وان كانت خارجية ،  
تستطيع ان تتناول نواحى شتى ، كما ان العيب الواحد قد  
يهدم حياة بأسرها . ومواعظ المصلحين لم تجد نفعا على  
طول الأجيال . لأن حب الجمال فى الانسان أعرق من ان  
يخنقه الارشاد ، وليت الارشاد ينقلب تحويلا الى الأخذ  
بالوسائل المغرية بتوقيت الزينة وتنظيمها



طويلة حاشيتى هذه بعد كلام التيمورية ، ولكنها غير  
دخيلة ولا هى تافهة . فمن الجميل ان يطمع فى المزيد ،  
ومن حق غير الجميل ان يقلل من دمايته ، ويستترها ،  
محاولا اظهارها بالمظهر غير المستنكر

ورغم انكار الغلو فى الزينة الفارغة ، فان التيمورية ترى  
ان أعنف العتب يقع على الرجل - وباحثة البادية ستقول  
هذا القول فيما بعد - لأنه القوى وفى وسعه النهوض بالمرأة  
الى حيث تتسع مداركها فتصبح له شريكة . فاذا بها  
تهتف :

« فيا رجال أوطاننا ! لم تركتموهن سدى ؟ » « وهن بين



انما لكم اطوع من قلم ؟ » ، « فعلام ترفعون اكف الحيرة عند الحاجة كالضال المعنى ، وقد سخرتم بامرهن وازدريتم باشتراكهن معكم في الأعمال واستحسنتم انفرادكم في كل معنى ؟ فانظروا عائد اللوم على من يعود ؟ »

منذ خمس وثلاثين سنة طلبت عائشة اشتراك المرأة مع الرجل في الأعمال ، ولم هذا الاشتراك ؟ لأنه طبيعي « من حكم باري السمات وموجد المخلوقات » ولأنه الأساس الاصل « لصيرورة مدار عمران هذا العالم على الزوجين . ولو أمكن الانفراد لخص عالم الأسرار أحدهما دون الآخر ، وهو الأفضل ، ولم يفقره الى ما هو دونه . فكان التأمل في هولي هذا الكون موجبا على الهيئة الرجولية العناية بتعليم المرأة وتهذيبها لينالوا بذلك أرفع مجد وأهنا جد ، ولتعتاض الفتيات عن قلق الجهل براحة العرفان » . أي ليقمن بواجبات التدبير في منازلهن وفي شؤونهن ، ويأتين بالمطلوب من عطف ووقاية وحكمة نحو نفوسهن وذويهن ، دون شهوة ولا شرود عن الصواب

انها تقول بلفتها بالمساواة بين الرجل والمرأة ، تقول بذلك تصریحا لا تلمیحا : « اذ لو أمكن الانفراد للرجل لخصه الله بالوجود دون المرأة ، فهما ضروريان كل منهما للآخر ، موجودان معا تحت شمس واحدة واحكام واحدة ليأتى كل بقسطه من واجبات متعادلة »

لقد قالت بهذا في الشرق ، ورات أن يتساوى الرجل والمرأة وان يشتركا في الأعمال ، وهي محجوبة رهن جدران الخدر . . ومتى ؟ في حين كان هذا يعد بدعة في أوروبا ، اذ لا يفوتنا ان لفظة « ذكر » لم يتفق على حذفها من قوانين



انجلترا والاستعاضة عنها بلفظة « رجل » أو « أحد » إلا  
منذ سنة ١٨٥٠ م . وكان ذلك مقدمة لتحرير المرأة عندهم  
من حيث ادخالها في الانسانية



تنطوى التربية على فروض كثيرة وتحتمل شتى  
الايضاحات والتاويلات . وعليها تحت قلم عائشة مزيد من  
الابهام والمرونة . الا انها بقولها « تأديب البنات وتهذيب  
العائلات » يغلب عليها وجوب تنشئة الفتاة لتكون أهلاً للسهر  
على مصلحة الاسرة والقيام بالمطلوب في سبيل تقدمها  
وراحتها وهنائها . لأن في حجرها تشب الاجيال ومن كان  
مهياً لاعداد الصلاح والعظماء والنبلاء وجب ان يكون على  
عظمة ونبل وصلاح

والمساواة ؟ هي معنى عارض في كلام عائشة ، برغم  
اهميته بالنسبة للوقت الذي ورد فيه . اما اليوم فقد  
شاعت هذه الكلمة وذاع معناها لدى من يفهمه ولدى من  
يزعم انه يفهمه . ولكن اكثريه الرجال ، حتى المتعلم الراقى  
منهم ، تكهروهم هذه الكلمة وتشير سخطهم وتهكمهم ، وهم  
لا يقرون منها ما يقرون الا بشروط من الحصر والتقييد

وأرى ان في انكار المساواة على المرأة تكريماً لها ، أية كانت  
الضيعة واللهجة المعبر بها عن ذلك الانكار ، لعل الرجل الذي  
يجهده كفاح الحياة لا يريد ذلك الكفاح للمرأة ، طامعاً في  
ادخالها للراحة والهناء والرخاء والمواساة . بل هو دليل  
على محبته المتلونة بشتى الألوان ، وعلى احترامه ولو مسخه  
أحياناً بشكل الاستخفاف . أذلك الانكار محض أنانية كما

يزعمون ؟ وماذا ترى لو كان ذلك ؟ ومتى كانت الحياة خالية من الانانية ؟ وما أحب أنانية أحبائنا الينا ! أما الانانية الممقوتة من القريب والغريب على السواء فهي الانانية التي تتورم على حسابنا ، ولا تجعل لحقوقنا في احصائها قدرا وشأنا . ومن هنا منشأ كل ثورة ، وكل فتنة ، وكل ظلم

ان المرأة التي تنال عوضا عن تأدية واجباتها عطفًا وحبًا ، لا تشور ولا تشكو حتى ولو عسرتها المسؤولية ، وانما هي المرأة المظلومة من ناحية العواطف ومن ناحية المعاملة ، التي تضج وتلج . يطلبون منها ألف ألف واجب ، ويقيدونها بألف ألف قيد ، ويرهقونها بألف ألف وقر ، ومقابل ذلك ، ماذا ؟ مقابل ذلك لا رعاية ، ولا عطف ، ولا محبة ، حتى ولا مجاملة . مقابل ذلك أحيانا ، لوم وتفنيذ ، اذن لماذا تحتل ؟ وفي سبيل أية غاية هي تحيا ؟ لقد سن لها المجتمع ، دون الرجل قانونا للعواطف والافكار والأعمال ، وركز لها ضمن حدود الاسرة هناء القلب ومسررات الحنان . ولم تقدر تلك القوانين ان ما فرضته لها من رضى قد لا يتحقق ، في حين تظل المرأة مرغمة على الواجبات الباهظة وتظل تعذبها لجاجة العيش ووخز الحاجة . وليست كل اسرة لتقوم بتلك الحاجة المحسوسة نحو افرادها ، ولا كل رجل ، زوجا كان أو ابا ، أو اخا ، ليعلم ويدرك ان الرجولة لا تقوم بترأس العائلة وبالأمر والنهي ، بل بتأدية واجبات ييسرها له المجتمع قدر الامكان ويجعلها على المرأة أعسر ما تكون

قيود واستدراكات وحدود من كل جهة في حياة المرأة . وعلى هذه المخلوقة الضعيفة ان تدعن لها جميعا وان ترى فيها الفضل والبر والكمال ، وان تأتي بما لا يخجل ان يهمله

الرجل شرط ان تظل ضمن حدود الفضل والبر والكمال .  
وللرجل كل الحرية في الحلال والحرام ، في الممنوع وفي الجائز .  
ايمكن ان يسكت على هذا الجور قلب يحس وينبض ؟ انه  
ليتناكله الجوى ويكظم عذابه الى حين ، ولكن لا بد ان يتفجر  
عن الاسى يوما ، لا سيما اذا رأى ان لا منفعة له من جهاده  
وان خيوط حياته تبلى عبثا ليجنى ثمرة تعبته من ليس  
لذلك اهلا

واها ، ايها الرجال الفضلاء ، انتم الذين تسعدون النساء  
العائشات تحت رعايتكم ، لو علمتم كل ما تكنه الدعوة الى  
المساواة من نصال مغمدة في القلوب !

لو علمتم ذلك لعملتم - ليس على نقض معاني المساواة  
كما تفعلون احيانا - بل على تعديل القوانين الجائرة وجعلها  
صالحة لجميع افراد المجتمع



# فهرس

## صفحة

مقدمة	٨
الفصل الأول : البارق فى الظلام	١٧
الكصل الثانى : عصر الشاعرة	٢٩
الفصل الثالث : النشأة والزواج	٥٣
الفصل الرابع : بيئة الشاعرة	٨٣
الفصل الخامس : شاعرة بثلاث لغات	١١٥
الفصل السادس : أشعارها فى الفزل والاخلاق والدين	١٤١
الفصل السابع : نثرها	١٦٩

# وكلاء مجلات دار النهضة

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات - مركزها الرئيسي بطريق الملك، المتفرع من شارع بيكو في بيروت صندوق بريد ١٠١٢ ( الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهي تتولى تسليمها لحضرات المشتركين )

العراق : السيد محمود حلمي - صاحب المكتبة العصرية - ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب. ٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد - مكتبة المؤيد - البحرين

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية  
Arabic Publications Distribution Bureau  
7, Bishopsthorpe Road, Sydenham,  
London S.E. 26, England.

فرنسا : Etablissements Helbaoui,  
29, Rue Saint-Augustin,  
PARIS-2°, FRANCE.

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,  
Pateo Do Colegio N° 3,  
3° Andar - Sala 9  
SAO PAULO - BRASIL.



## هذا الكتاب

يمتاز هذا الكتاب بأن الشاعرة التي يتحدث عنها في هذه الدراسة النفسية هي الطليعة الاولى لأدبيات العرب في تاريخ الشرق الحديث ، وإن مؤلفته هي الأنسة مى النايغة الاولى فى القرن العشرين التى ساهمت فى كثير من الميادين الادبية والنسائية والاجتماعية بقلمها البليغ على صفحات الصحف ، وصوتها الفصيح على منابر الخطابة الرائعة وهى فى هذه الدراسة تقدم لنا عائشة تيمور ، شخصية فذة بين بنات جيلها ، بل كطليعة لامعة لنهضة المرأة فى الشرق الحديث .

أواخر القرن التاسع عشر على الظروف العصيبة التى كانت محيطة بالحين . ولقد درست نشأتها وبيئاتها والادبية ، كما درست العصر الذى عر وحلته تحليلا دقيقا ، كما حلت شعر ممتزجا بالدراسة النفسية للشاعرة بدور فى خاطرها من احلام وآمال ولقد اتاحت المؤلفه لكل قارئ أن هذه الشاعرة النايغة فى هذا الكتاب وقتا ممعا تفكر والنفس والوجدان

Bibliotheca Alexandrina



0962696

